العقيدة

يقيناً لا تلقيناً

تأليف

الشيخ عواد سلمان أبو عاذرة

DKI

دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

Title: Al-ᶜaqidah yaqinan lā talqinan

(The Islamic beleif by conviction not by teaching)

Author: Al-šayḫ ᶜAwwād Salmān Abū ᶜĀḏrah

Publisher: Dar Al-kotob Al-Ilmiyah

Pages: 136

Year: 2006

Printed in: Lebanon

Edition: 1st

الكتاب: العقيدة يقيناً لا تلقيناً

المؤلف: الشيخ عواد سلمان أبو عاذرة

الناشر: دار الكتب العلميـــة ـ بيروت

عدد الصفحات: 136

سنة الطباعة: 2006 م

بلد الطباعة: لبنـــان

الطبعة: الأولى

ISBN 2-7451-5225-4

9 782745 152251 90000

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية بيروت لبنان

الطبعة الأولى

٢٠٠٦ م ـ ١٤٢٧ هـ

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

الإدارة: رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت

Ramel Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg., 1st Floor

هاتف وفاكس: ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ (١ ٩٦١)

فرع عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية

Aramoun Branch - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.

هاتف: ١٢/ ١١/ ٨٠٤٨١٠ ٥ ٩٦١+ ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+ رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

http://www.al-ilmiyah.com

e-mail: sales@al-ilmiyah.com

info@al-ilmiyah.com

baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يهدف هذا البحث إلى تحقيق عنوانه (العقيدة.. يقينا لا تلقينا)، وذلك بالبرهنة على وحدانية الله وبعض صفاته الجليلة، وصدق الرسالة الإسلامية المتمثلة في القرآن الكريم، وصدق رسول الرحمة المهداة للإنسانية، صلوات الله وسلامه عليه.

وقد افترضت في القارئ رفض كل قضية يعوزها الدليل ويرفضها العقل والمنطق. ولهذا جعلت نصب عيني بسط الحقائق التي يدعمها الواقع والعلم.

ووسيلتي إلى البرهنة على وحدانية الله، هي استقراء ذلك واستنباطه مما خلق في الأرض والسماء.. مبتدئا بالذرة التي بنى بها كل شيء بلغته معرفتنا من هذه المخلوقات. ثم عرضت للتشكيلات الكونية... فأبنت أن كل ما في الكون يخضع لوحدة البناء والحركة... نشأة واكتمالا وانتهاءًا، وأنه مترابط ترابطًا مصيريًا يقطع بأنه يخضع لإرادة واحدة.

وقد أوقفت جل بحثي في هذا الباب على الأرض وعلاقتها بالشمس، وأثر ذلك في حياة مخلوقاتها التي لم يفتني تحليل واقعها للوقوف على عظمة الصانع، بدلالة بديع ما صنع.

وسيرى القارئ في ختام المطاف لهذا الباب، أننا قد بسطنا أمامه ما يفي بالبرهنة على أن لهذا الكون ربًّا لم يكن له كفوًا أحد.

وللبرهنة على صدق الرسالة والرسول، اخترت آيات معجزة تنطق بالحقائق العلمية كمثال على إعجاز هذا الكتاب الكريم، مما لا يدع مجالا للشك بأنه تنزيل من رب رحيم.

ومع أن البرهنة على صدق الرسالة تؤدي تلقائيا إلى تصديق الرسول، فقد تقصيت حياته الشريفة صلوات الله عليه، واستخلصت منها موجزا لواقع حاله الذي يشهد بأنه الصادق المصدوق، ويؤكد أن رسول الله مجرد عن الهوى، وأن ما جاء به هو وحي يوحى.

وأخيرًا اختتمت هذا البحث بنبذة عن الدعوة الإسلامية كملحق جئت به مثالا على ما ترمي إليه هذه العقيدة وتسعى إلى تحقيقه.

وإني لأرجو القارئ الكريم – قبل أن أتركه لتصفح هذا البحث، الذي هو استنباط وتحليل لحقائق علمية – أن يعلم أنني لم أقصد النظريات العلمية لذاتها، لكي أوفيها بحثا وتمحيصا؛ بل لبيان آيات الإبداع التي فيها. ولذا يراني قد اكتفيت منها بما يفي ببرهنة ما أردت برهنته لأنها أكثر من أن تحصى، فليستزد من آيات هذا الكون المنظورة يقينا على يقينه، و من آيات كتاب الله المنثورة إيمانا على إيمانه، لأن هذا البحث لا يمثل سوى خطوة بسيطة على الطريق إلى الله الذي ندعوه أن يجعل لنا من أمرنا رشدا، وأن يوفقنا للعمل بما آمنا به.. إنه نعم المولى ونعم النصير.

عواد سلمان أبو عاذره

هذا الكون

تمهيد:

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

امتثالا لكلماته جل جلاله، نرى لزاما علينا تصفح ما نستطيع تصفحه من هذا الكون العظيم، بقدر ما تدركه عقولنا، وما تهيئه لنا وسائلنا العلمية التي مكّننا تقدُّمها من الوقوف على أسرار بعض ما حولنا.

والضاربون في هذا متفاوتون، ومثلهم كقاعد على ضفاف نهر عظيم ينهل منه ما يشاء ليطفئ ظمأه، لكنه لن يشرب النهر، وله أن يكتفي منه بهذه الجرعات المحدودة، أو يقيم عليه سدودا عظيمة وقنوات متشعبة في دلتاه، ينشئ عليها جنات ألفافا يعم خيرها البلاد والعباد.

وهكذا تحرِّينا ودراستُنا لما حولنا فإما اكتفاء بالبصيص الذي لا يكاد يزيل غمة الشك، وإما التوصل إلى نور الحقيقة الكبرى، فتشرق دنيانا باليقين ومعرفة الحق المبين. واختلاف النتائج مرده إلى أن الناس ليسوا سواء... فلكل طريقته في التقصي، فمنهم من يأخذ من الأمور قشورها، فلا يتجاوز عتبات الطريق، ومنهم من يتدبر الأمر بروية، ويحلل ما أمامه تحليلا يتيح له ربط النهر بروافده... فيقف على منابعه العليا، ثم يضرب في الأعماق، لأن عظيم أسرار الأشياء يكمن في أعماقها.

وسنرى أننا لا نملك وسيلة علمية أو مستوى عقليا يتيحان لنا تجاوز المحدود من المعرفة، عن هذا الكون اللانهائي، والذي يكتظ ببديع ما خلق الله.

فلنحاول تدبر ذلك بالمشاهد والملموس مما حولنا، لنقف على بعض آيات عظمته جلت قدرته، دون الطمع في الإحاطة، لأنه لا يحيط بعلمه سبحانه وتعالى إلا هو وليس لنا من ذلك إلا ما تشاء إرادته.

ولا ييأسن أحد... فلكل مجتهد نصيب، فقد يعود الغطاس بما يغنيه، وقد يعود بقوت العيال ليومهم، مما يشجعه على معاودة الريادة لمنابع الرزق.

ولنثق أن الله لا يضيع سعي ساع يريد الخير، لأنه لا يضيع أجر من أحسن عملا.

وانتقالا لبحثنا أرى أن نبدأ بالذرَّة، هذه اللبنة العجيبة التي بني بها كل شيء عرفناه في الوجود.

الذرة:

تتكون الذرة من نواة تدور حولها إلكترونات يختلف عددها من ذرة إلى أخرى... وكل ذرة، تدور إلكتروناتها حول نواتها، في مستويات مختلفة، واختلاف عدد الإلكترونات وخواص النوى من ذرة إلى ذرة، تسبب في إيجاد مختلف العناصر التي اكتشفناها حتى الآن.

والذرة، لا تكاد تشغل حيزا لصغرها المتناهي... لدرجة أنه يمكن اعتبارها فراغا !! ومع هذا، لا يشذ نظام تركيبها، ودوران إلكتروناتها حول نواتها، عن نظام تركيب نجوم الكون ومجراته، ولا عن نظام حركتها، بدورانها في أفلاكها في مستويات مختلفة كما سيأتي بيانه.

والبعد النسبي بين نواة الذرة وإلكتروناتها، بعد هائل بالنسبة لحجومها التي لا تعد شيئا مذكورا.. فلو اعتبرنا الشمس نواة، وكواكبها التسعة التي تدور حولها إلكترونات، لوجدنا أن المسافة بين الشمس وكواكبها تكاد أن تتناسب والمسافة بين نواة الذرة وإلكتروناتها.

ومجموعتنا الشمسية دائمة الحركة خضوعا لقانوني الجذب والطرد... وكذلك الذرة، إلكتروناتها دائمة الحركة خضوعا لقانوني الجذب والطرد، بل إن هذا التركيب، وهذه الحركة، تخضع لها كل نجوم الكون ومجراته دون استثناء. (وسنوضح ذلك فيما بعد).

ذكرنا أن العناصر التي تم اكتشافها، كلها تتكون من ذرات لا تختلف عن بعضها إلا في عدد إلكتروناتها وخواص نواها، ومعلوم أن التركيب الكيميائي لهذه العناصر بنسب مختلفة يتكون منه مختلف المواد.

تماما كحروف الهجاء عندنا.. فإنها على قلتها تستطيع تكوين كلمات تستوعب لغتنا التي نعبر بها عن ديننا، وتاريخنا وعلومنا وآدابنا وآمالنا وعواطفنا، مع أنها لا تتجاوز ثمانية وعشرين حرفا أو قل ثمان وعشرين وحدة بناء لكلماتنا المختلفة.

وكذلك العناصر، فإنها بتمازجها كيميائيا بنسب وأنواع مختلفة تكون مواد لا حصر لها تدخل في تركيب كل شيء أحاطت به معرفتنا من أدق الجراثيم إلى أضخم الأفيال والحيتان، ومن الإنسان لأحط الرتب الحيوانية والحشرية.. حتى أنه يمكن اعتبار مادة النجوم قد بنيت من عنصري الهليوم والأيدروجين !! وهذا الماء الذي يغمر أكثر من ثلثي الكرة الأرضية ويرتفع جليدا في قطبيها لمئات الأمتار كله يتكون من عنصرين اثنين: الأكسجين والأيدروجين. وإذا حاولت تتبع هذين العنصرين لتقف على ما أسهما فيه من بناء وما أحدثا من أثر، فإنك ستعجز عن الإحاطة بذلك.

فما أدراك ببقية العناصر التي علمناها والتي لم نعلمها بعد؟؟ وما مقدار ما يمكن تكوينه منها من مواد؟ سيما وأن قدرة الله على صياغة مختلف الموجودات من هذه العناصر، لا تطاول. ولا شك أن ذلك بالإضافة

لعوامل أخرى، هو أحد أسرار خلق الأشياء والكائنات على هيئة تمكننا من تمييزها، مع أنها جميعها تكونت تكوينا ذريا لا تختلف ذراته كما قلنا إلا في عدد إلكتروناتها وخواص نواها!!

ولنكتف بهذه اللمحة عن مادة الكون (الذرة)التي أقيم منها كل هيكل مهما دق أوعظم، وزودته بطاقة لا تنضب، لنواصل تقصينا لما يمكن تقصيه من هذا الكون المعجز في تشكيلاته ونظمه.

التشكيلات الكونية

يشكل هذا الكون وحدة واحدة تظهر لنا من دراستنا لكوكبنا الأرضي الذي نعيش عليه، فشمسنا التي ندور حولها ليتم احتضانها لنا على أكمل وجه، فمجرتنا درب التبانة التي تغيب مجموعتنا الشمسية في جوفها، كما تضيع بذرة في جوف فيل ضخم، فالتجمع المجرِّي الذي تشكل مجرتنا إحدى وحداته.. وأخيرا التجمعات المجرية الأخرى التي قد تبلغ الواحدة منها عشرة آلاف مجرة !!!

أما كرتنا الأرضية فإنها تدخل ضمن مجموعتنا الشمسية التي تتكون كما ذكرنا من الشمس وتسعة كواكب تدور حولها في مستويات مختلفة... كل في فلك محدد لا يتجاوزه ولا يتقاعس في السير عليه، أو يزيد من سرعة دورانه المقدرة له، ولكل كوكب منها دورتان، دورة حول نفسه، وأخرى حول الشمس. وتكمل أرضنا دورتها حول نفسها في يوم، ودورتها حول الشمس في عام (وسنبين فيما بعد أثر ذلك في حياتنا).

ولما كانت الكرة الأرضية مشدودة برباط متين لهذه الشمس التي تدور دورة واسعة جدا في فلكها حول محور المجرة ولا تتمها إلا في مائتين وخمسة وعشرين مليون سنة، فإننا حتما نغير مكاننا في هذا الكون كل جزء من ثانية، ولا نعود إليه أبدا. إذ تدركنا المنية في بدء الشوط الطويل الطويل كما ترى !!! لأن شمسنا السابحة بنا لا تكمل دورة واحدة حول محور مجرتنا إلا وقد تمت على الأرض ملايين الأجيال منا، وطحنها الزمن تماما. ولك أن تتصور عظم ما خلق من أحياء واندثر في الدورة الواحدة تلك.

وهذه الشمس التي تقوم بدور الحاضنة والقاطرة معا تبعد عنا ثلاثة وتسعين مليون ميل، وقطرها ثمانمائة وسبعون ألف ميل تقريبا ومع هذا، فهي من أصغر النجوم وأقلها ضياء، لكننا نشعر بضوئها الساطع لقربها منا. أما النجم الذي يليها قربا لنا، فهو النجم قنطورس، ويبعد عنا ستة

وعشرين مليون مليون ميل.

ولا عجب في ذلك، فهناك النجم المسمى (الرِّجل) الذي يبعد عنا خمسمائة سنة ضوئية (السنة الضوئية: ستة ملايين مليون ميل).

ولو اقترب منا الرِّجل اقتراب الشمس لاشتعلت أحياء كرتنا اشتعال عود الثقاب عند غمسه في جمرة!! ولك تقدير مآلنا لو حصل هذا ألا نتبخر في لحظات؟!

قلنا: إن شمسنا هي نجم من نجوم مجرتنا (درب التبانة)، ونضيف أن هذه المجرة تتكون من نحو مائة ألف مليون نجم !! جلها أضخم من الشمس، وقد تجمعت هذه النجوم لتعطي المجرة شكلا متقببا كهيئة طبقين غير عميقي القاع، مكفي أحدهما على الآخر.. مما نلاحظ معه انتفاخا آخذا في التفلطح عند محيط المجرة، والسبب في هذا هو أن هذه الآلاف من ملايين النجوم تدور في أفلاك مختلفة المستويات، كما ذكرنا عن نظام إلكترونات الذرة وكواكب الشمس.

أما البعد بين طرفي المجرة، فيقارب المائة ألف سنة ضوئية !! وسمكها عشرون ألف سنة ضوئية !! وتقع شمسنا على ربع القطر، أي متوسطة بين المحيط ومركز المجرة، مما يؤكد أنها ليست الأعظم، وأنها مغمورة بالنسبة لضخامة النجوم الأخرى... ووضعنا بالنسبة للمجرة، يجعلنا في العمق نوعا ما، مما يتيح لنا رؤية هذه الطبقة السماوية المزدحمة بما نشاهده ليلا من هذه النجوم.

ويأتي دور مجرتنا الضخمة هذه لتدخل في تشكيل مجري يدور حول محور تشكيل مجري أضخم، ولا ندري كم من مليارات السنين الضوئية تحتاج حتى تتم دورة واحدة، ويمكننا أن نستمر في هذا التصاعد في التشكيل المجري الذي لم نتوصل بعد إلى وحدة قياس نستطيع بها الإحاطة بهذه

المسافات اللانهائية، وأحجام هذه الأجرام التي لا يدركها فكر أو خيال.

والمجرات تميل إلى التجمع، شأنها شأن كل تشكيل في الكون، فمن التجمعات المجرية ما يتكون من عشر مجرات، ومنها ما يتجاوز العشرة آلاف مجرة، كمجرة (كوما) التي تقع شمال مجرتنا، وهي تبعد عنا عشرة ملايين سنة ضوئية.

وعلى سبيل المثال.. فإن مرصد بالومار استطاع أن يرصد بعض التشكيلات المجرية التي تبعد عنا آلاف الملايين من السنين الضوئية!! وطبيعي أن ذلك التشكيل لا يعدو أحد أمرين: إما أنه تشكيل مجري يدور حول تشكيلنا المجري.. أو أن تشكيلنا يدور حول ذلك التشكيل.

ولك أن تتصور محيط الدائرة الكونية التي نصف قطرها آلاف الملايين من السنين الضوئية !! ومن الذي قال: إن مرصد بالومار قد رصد القصي من الكون ؟ (حاشا لله أن يحيط بملكه أحد). وستأتي مراصد أطول باعا من مرصد بالومار لكنها مع ذلك، لن تتجاوز الإحاطة بنقطة من هذا الكون اللانهائي، المرتبط ببعضه ارتباطا لا انفصام له، والخاضع في حركته الكونية لنظام حركي واحد، يبقى التوابع في مستوى معين بين قوتي الجذب والطرد.

وبالتالي يبقى كل تابع ضمن تأثير المتبوع... إذ إن ما نعرفه أن أرضنا تخضع لنظام كوني محدد، وثابت، فلا تتغير مواقيت مواسمها ونظم الحياة فيها، بالرغم من المسافات الكونية التي تقطعها كل دقيقة.

والأغرب من هذا، فإن نظرية الخلق والهدم، أو ما يسمى بالحياة والموت مطبقة على الجميع، الحشرات وأضخم المجرات، إذ إن في الكون نجوما وليدة في دور التكوين، سيكتمل شبابها بعد ملايين السنين الضوئية، وبجانبها شموس فتية، أو شابة في عنفوان شبابها، وأخرى كهلة أو ميتة، خمد أوارها فانكمشت وقل حجمها، وزادت كثافتها زيادة هائلة لشدة

ابترادها.. مما جعل ملء الملعقة من مادتها يزن بضعة أطنان، وقد يعجب المرء من هذا، لكن عجبه يزول إذا علم أنه لو استطعنا تجميع سنتيمتر مكعب من نوى الذرة لوزن ذلك مليون طن !! وهذا معلوم الآن لكثير من الناس.

وبما أن الكون يتكون من تركيبات ذرية، فلا غرابة إذا علمنا أن هناك كتلا في السماء تبلغ الملعقة من مادتها ملايين الأطنان. وهذا أمر منتظر، إذ ما الذي يشد النجوم لمحاور مجراتها، والمجرات الصغرى للكبرى؟ لا شك أن للكثافة والحجم شأنا في هذا، إن لم يكن هناك ما هو أغرب، ولا مظنة في ذلك أبدا. فالله واسع عليم، وشواهد كونه البديع تشهد بعظمة الباني، وضخامة البناء، وخضوعه لسنة الحياة، نشأة وزوالا.

من واقع هذا الوصف العلمي المعروف لدى معظم سكان المعمورة، ممن نالوا حظا متواضعا من الثقافة. يتبادر لنا السؤال التالي:

كيف أمكن إقامة هذا الكون العظيم الذي وصفنا بعضا منه؟ وليس كل شيء فيه ؟ وكيف بنيت كل موجوداته المتجانسة والمتناقضة من شيء واحد، ألا وهو الذرة. هذه الذرة، التي كفت كل شيء بناء وطاقة، ثم كيف تمت هذه الحركة الدائبة بتناسق عجيب ودقة أعجب؟؟ فالكل يتحرك في فلكه منذ أنشأه الله، وكل ذرة فيه دائبة الحركة.

وبهذه الدقة في التحرك. فلا يتقدم كوكب أو نجم أو مجرة عن ميقاته المعلوم لحركته، ولا يتأخر عنه، ولا يعيق تشكيل تشكيلا.. بالرغم من الأجرام السماوية التي لا حصر لها، والمندفعة كلها نحو المحيط الظاهري للكون بسرعة مذهلة، ولم يصل إلى علمنا أن أحدها قد وصل المحيط بعد!!!.

(نعم... بهذه الدقة الخارقة التي لا يستطيع رسمها إلا صاحب القدرة العظمى، الله جل جلاله، وسيبقى حال الكون هكذا، حتى يشاء الله له أو

لبعضه بالزوال، لأن كل ما فيه خاضع لسنة الوجود الكبرى، مع الفارق الزمني والكيفي، ألا وهي سنة الخلق والهدم التي شاءها الله ولن تجد لسنته تبديلا.

فقد جعل الحياة تنساب انسياب النهر من منبعه لمصبه، ولا مجال لقطرة غادرت المنبع أن تعود نكوصا إليه، متعاكسة السير مع التيار المتدفق نحو الحوض، لأن رسالته هي إقامة الحياة في دلتاه، وإن كانت أبواب الحظ مفتوحة أمام بعض الكميات التي تركت المنبع كي تعود له إن حالفها الحظ، ولكن بقانون آخر وكيفية أخرى.

فقد تعود بخارا يغادر أجواء الدلتا أو البحر أو البحيرة التي انصبت فيها، فتحملها الرياح سحابا يتساقط مطرا على المنبع، وقد لا تعود أبدًا، وقد تعود بعد شهر أو بعد آلاف السنين، حسبما تفعل بها المواسم الخاضعة لمشيئة الله. وهكذا الحياة تندفع بأهلها، ولا مجال لأن تعود الأجيال الفانية إلا بناموس آخر يوم يشاء الله).

بهذا، نكون قد بينا أن الكون بكل ما فيه، مبني بوحدة واحدة.. ألا وهي الذرة، ولا سواها (حسب معرفتنا)، وكل ما فيه بدءا بهذه الذرة وانتهاء بأضخم تجمع مجري، يخضع لنظام واحد في حركته.. النواة تتبعها إلكتروناتها... والنجم تتبعه كواكبه، وهو بدوره تابع يدخل ضمن سيادة مجرته ونظامها، ويدور حول محورها، وإن كانت له السيادة على توابعه فإنه يصبح مغمورا بين ملايين النجوم التي تشكل مجرته، والتي يوجد فيها آلاف الملايين من النجوم التي هي أكبر منه.

فسبحان العليم القدير القاهر فوق عباده، فمن الذرة بنى، وبقانون الجذب والطرد حرك وأخضع الكل للفناء، ثلاثة أسسٌ ترمز لحقيقة هذا الوجود وقدرة موجده. فالذرة التي لا أخت لها، والتي لم يبن شيء عرفناه

إلا بها، برهان على وحدانيته جل وعلا. إذا أن هذه الذرة التي قلنا: إنها من الصغر بحيث تعتبر فراغا، لا يحتاج خلقها للتعاون بين إلهين أو أكثر!! والكيفية التي أقيم بها هذا الكون. شمس بتوابعها تدخل في تجمع لآلاف الملايين من أمثالها لتكون مجرة، ولتتجمع هذه المجرات فتكون تجمعات مجرية، بعضها عشر مجرات فأكثر، حتى يصل بعض تجمعها إلى عشرة آلاف مجرة كما قلنا، وتخضع كلها لنظام حركي واحد، لهو برهان آخر على وحدانيته وعظمته سبحانه وتعالى... فهو الباني لعظيم كونه، وما فيه من موجودات، من شيء يشبه العدم، وهو المحرك للجميع دون استثناء وبنظام واحد... حركة موحدة متناسقة، لا نشاز فيها. ثم الكل يخضع لمآل واحد هو الفناء... وهذا برهان على وحدانيته وقدرته وقهره للعاتيات مما خلق وبرهان على أنه الغني غير المحتاج لأن يبقى هذا أو ذاك لأنه الحي الباقي، المنزه عن الزوال، وصفة البقاء المنفرد بها سبحانه وتعالى توجب الفناء على ما سواه، لأنه أجل من أن يشترك معه أحد في صفاته المتسامية عن المثل كالوحدانية والديمومة.

ألست معي أن هذا الكون كما ترى مبني بعلم كبير؟؟ وتدبير الحكيم الخبير، الذي حدد الأهداف للجميع، وأمن الضعيف من بوائق القوي؟؟ وأنه القادر الغلاب الذي لا يخرج شيء عن إرادته؟؟

وهل يجوز بعد هذا أن نقول: جاءت هذه الكائنات صدفة!! وأنها قد أوجدتها الطبيعة؟!! اللهم عفوك وحلمك... فكل هذا الإبداع الذي يدل على العظمة والعلم الواسع الدقيق لا يلفت نظر عبادك إليك!! بالرغم من تزويدك لهم بالعقل. ويعلمون أنهم في كبد السماء يسبحون بأرضهم بسرعة لا تدانيها سرعة مما عرفوا، ولا يعودون إطلاقا إلى خطوة قطعوها. وقد وسعت مسار أرضهم، ومسار ما هو أعظم من أرضهم آلاف ملايين

المرات، ومع ذلك لا يحاولون إجهاد أنفسهم بالتفكير لحظة في هذا، ليعلموا أنك ربهم.. يسيرهم علمك.. وتحميهم قدرتك من الأجرام التي لو اقتربت من أرضهم لبخرتها، كل هذا وهم في غيهم وغفلتهم سادرون !! لكنك البر الرحيم، الذي كل ما في هذا الكون ينطق بقولك الحق: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٩].

وقبل أن أنهي هذا الموضوع. أود أن أوضح أن ما ذكر، ما هو إلا إشارة مسرع لهذا الكون العظيم المليء بعجائب ما صنع الله، والتي سنعرض لشيء منها، لأنها أكثر من أن يشملها بحث.. وأعظم من أن تسبر أغوارها.. لاستحالة ذلك. إذ إن علماء متخصصين مدققين، يقفون حياتهم لتقصي نوع واحد من الحشرات... فينتهي بهم العمر قبل إتمام بحثهم الذي يورثونه لغيرهم، كي يواصلوا البحث فيه.

ولذا لا ينتظر منا تقديم بحث يفي بما يستحقه هذا الكون العجيب الزاخر بتكويناته ومخلوقاته التي تتضاءل هذه الأرض وما عليها بالنسبة لها. ولا غرابة في ذلك، فكل القرائن تشير إلى أن هذا الكون مليء بموجودات خلقت بنواميس مختلفة ولغايات يقصر عقلنا البشري عن إدراك كنهها وغايتها وما هذه العظمة في الخلق والإبداع على أرضنا إلا إحدى القرائن التي تدفعنا إلى اليقين بأن هناك خلقا وإبداعا في غيرها.

وإذا خيل لأحد أن هذا الكون عقيم وأن ما وهبه الله للأرض لم يهبه لغيرها وإن اختلفت نواميسه، فإنه يقع في وهم كبير وتجاهل لما يحيط به، وتصغير لشأن عظيم الشأن.

وما يدلنا على أن ما هناك هو الأعظم وأن ما هنا هو الأقل، هذه الضآلة النسبية لكوكبنا الأرضي، لما يزخر به الكون من نجوم وكواكب عملاقة. بل إن هذا يؤكده قول الله تعالى في كتابه الكريم لنا، ويؤكده

الحديث الشريف، كما يؤكده العلم الحديث.

فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠].

تشير هذه الآية الكريمة من جملة ما تشير إليه، إلى أن الله قد فضلنا على كثير من عقلاء خلقه، وليس على أكثرهم، وواقع حالنا في الكرة الأرضية يؤكد أننا وحدنا الأفضل عليها، فلا وجه للمفاضلة بيننا وبين عجماواتها.

إذًا، المفاضلة هي بيننا وبين مخلوقات عاقلة أخرى في غير هذا الكوكب، ونتيجة المقارنة قد حددها الله بأننا أفضل من كثير منها، مما يؤكد أن هناك غالبية عظمى من خلقه أفضل منا. لأنه لو كنا أفضل الغالبية لقال: (وفضلناهم على أكثر من خلقنا تفضيلا) ولو كنا الأفضل لقال: (وفضلناهم على كل (أو جميع) من خلقنا تفضيلا).

إذًا، القرآن يقرر أن في الكون خلقا من الكائنات العاقلة، ولبني آدم درجة مفضلة على كثير منها، لكن أكثرها أفضل من بني آدم، وطبيعي ألا يكون بنو آدم مبلغ قدرة الله وغاية إبداعه فحاشاه أن تحد قدرته بهذا المخلوق ذي الدور العابر في ملك الله.

أما الحديث النبوي فيقول ما معناه: «**لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها جرعة ماء**».

وواضح أن الحديث يضفي على الأرض صفة الضآلة بالنسبة لغيرها من الكواكب الأخرى التي لا حصر لها كمًّا وكيفا، وهو حديث متناسب مع الآية الكريمة التي مرت، ومتناسب مع ما يقرره العلم الحديث الذي يؤكد الضآلة المتناهية للأرض بالنسبة لشموس هذا الكون وكواكبه. كما أن

العلم قد أثبت أخيرا أن الأحماض الأمينية الثمانية عشر التي تعد اللبنات التي تبنى منها شتى أنواع الحياة قد اكتشف وجودها في الكون. وذلك بتحليل بقايا الشهب، مما يحتمل معه وجود الحياة بنواميس أخرى في هذا الكون.

ولا عجب، فمن أقام الحياة هنا بالكربون، لا تعجزه إقامتها في غيرها بوسائل أخرى كالسليكات مثلا. وإنه لإعجاز ما بعده من إعجاز انفرد به القرآن العظيم، والحديث النبوي الشريف، مما يؤكد لنا أن أعظم خلقه ليسوا على هذه الأرض،.. وأن إبداعه في الخلق لا يحد.. بل يتناسب وقدرته التي لا حد لها، وعلمه الواسع الدقيق، الذي لا مجال فيه لعفوية في الخلق أو تمرد لمخلوق.

فلنمعن النظر والفكر في هذا الكون، مستلهمين الهدى من علامات الهدى التي يزخر بها كل ما حولنا من وجود، لعلنا نصل إلى اليقين أو نزداد يقينا على يقين.

ومواصلة لبحثنا، سنحاول إلقاء نظرة على هذه الشمس التي ندور حولها لنرى أن علاقتنا بها مبنية على علم عظيم، وأنها سر الحياة في هذه الأرض.

علاقتنا بالشمس

معلوم أن لكرتنا الأرضية دورتين.. دورة حول نفسها تتمها في يوم واحد، وأخرى حول الشمس تتمها في سنة، وبهذا تناوب بين أجزائها في تعرضها للحرارة والبرودة مناوبة يومية، متمثلة في الليل والنهار، ومناوبة فصلية متمثلة في الفصول الأربعة، مما يوزع الحرارة والبرودة توزيعا دقيقا على معظم أجزائها، جزءا إثر جزء، سواء في التوزيع اليومي، أو في التوزيع الفصلي، ولضمان دقة التوزيع، جاءت الحركتان ؛ دورة الأرض حول نفسها، ودورتها حول الشمس.

قلنا: إن معظم أجزاء الأرض تأخذ نصيبها من الحرارة، وليس كل أجزائها، لأن لقطبيها نظاما فيه الفرق بين الظلمة والنور أطول أمدا، ونصيبهما من الحرارة زهيد، ليجمد الماء صيانة لليابسة من الغرق، إن لم يكن ذلك سرا لظهور معظم اليابسة، لانحسار هذا القدر الهائل من الماء، وتجمعه بعيدا في قطبيها... هضابا وتلالا وجبالا من الثلج قبل بدء الخليقة عليها.. تمهيدا لنشأتها فيما بعد، وأعتقد أنه كان كذلك.

أما توزيع الحرارة والضوء على الأجزاء المغمورة بهما.. فيختلف شدة وسطوعا من جزء إلى جزء. تبعا لليل والنهار والفصول.. علما أن المناوبة بين هذه الأجزاء أسرع يوميا لسرعة تناوب الليل والنهار، وأبطأ في تناوب الفصول. وكذلك فروق الحرارة في المناطق المعتدلة بسيطة في المناوبة اليومية لكنها ظاهرة في المناوبة الفصلية.. ففي فصل الصيف تكون الحرارة غيرها في الشتاء. أما الصحاري فالفروق فيها ظاهرة بصفة دائمة تقريبا، وما ذلك إلا لحكمة اقتضاها الحكيم الخبير الذي لم يقتض أمرا عبثا... بل ملؤه العلم وضرورات الحياة، وما يدريك فلعل الصحاري شكلت قديما عامل ضغط على الناس ليتجمعوا في الأراضي الخصبة... فأسسوا الحضارات التي تطورت إلى ما نرى من حضارات. ولو كانت كل الأراضي خصبة لانتشر

الناس انتشارا أخر تحضرهم عدة قرون. ولعل سبق الشرق للغرب حضارة مرده لطبيعة بلديهما.

إذًا، التوزيع للحرارة بهذه الكيفية تمت به الفائدة القصوى للأرض ومن عليها.. إذ لو استمرت الحرارة على قسم وحرم منها القسم الآخر... لاندفع البخار من مصادر مياه الجزء المعرض للحرارة بأضعاف ما هو عليه حاليا. وطبيعيّ ألا يتكثف في أجواء هذا الجزء وليس أمامه إلا أجواء الجزء الثاني ليتكثف، لاشتداد البرودة هناك، فينزل منهمرا مدمرا مغرقا.. لأنه يسقط غزيرا أو كتلا ثلجية تدك ما على الأرض دكا. وبديهي أن تستمر هذه الحالة لاستمرار أسبابها، الأمر الذي تزول معه آثار الحياة إن وجدت أصلا.

أما الجزء السابق، فيتحول إلى سطح جاف محروم من قطرة ماء تنزل عليه.. بل يصبح ملتهبا بالحرارة التي انفردت به، فتختزن منها الأرض ما تختزن، ليصبح هذا الجزء فيما بعد أتونا جفت فيه أجسام الأحياء، وانعدمت الحياة، فتكون الأرض بهذا غول الحياة لا أمها ومهدها الوثير الذي ننعم به كما ترى.

ولو تغير وضع كرتنا في سيرها حول الشمس. بحيث يتعرض قطباها مناوبة للحرارة، لانتقلت البرودة للمساحات الواسعة بين القطبين، ولأخذت جبال الثلج تكتسح المعمورة ببخار الماء الذي أذابته الحرارة، ولفاضت المحيطات والبحار، وغمرت معظم اليابسة بالماء، فتصبح كرة من الماء تقريبا، وتعود كما كانت ملكا لحيوان البحر ونباته، ولكن بزوال معظم حيوان البر ونباته، وما ذاك إلا لاختلاف بسيط في حركة الأرض، بحيث عرضت القطبين للحرارة الأشد بدلا من خط الاستواء وجانبيه.

نخلص من هذا، إلى أن حركتي الأرض، هما سبب انضباط الحرارة، وسر ظهور اليابسة، ولو أنها غير مؤهلة لأحياء اليابسة آنذاك، ولابد من

صياغتها بالشكل الذي يجعلها قابلة لسكنى هذه الأحياء، فكان للحرارة أثرها الفعال، فأصبحت صخورها يتناوبها التمدد والتقلص تبعا لحر النهار وقر الليل، تحقيقا لنظرية الهدم على صخورها العاتية.

فأخذت تتفتت وتزداد تفتتا، مما هيأ لعوامل التعرية الأخرى كالرياح العاصفة والمياه الجارفة أن تأخذ دورها في معاونة الحرارة في التفتيت وطحن ما تفتت. فنتج عنه تمهيد السطوح العالية وتسهيل المهابط الوعرة والسهول المنبسطة بتربتها الناعمة وإن احتفظت ببعض السطوح الجبلية والمنخفضات المحاطة بالمرتفعات، وبأغوار سحيقة كما نشاهد، وكل ذلك إتماما لرسالة الأرض وتأهيلها لسكنى الأحياء.

فالمنخفضات تحتفظ بماء المطر المتساقط عليها وعلى المرتفعات المحيطة بها، فتقوم بحقن الأرض به على مدار السنة أو لمدة قصيرة حسب اتساعها، ومقدار ما يهبط عليها من ماء، كما أن هذه الكيفية للسطح لها أثرها في حركة الهواء واختلاف المناخ.

وانظر إلى الكرة الأرضية.. تلاحظ أن مواقع المياه فيها، منخفضة عما سواها، ولو لم يكن هناك اختلاف أصلا في تشكيل سطح الكرة الأرضية، لما حصل انحسار الماء في المنخفضات، مكونا البحار والمحيطات ولما ظهرت اليابسة... اللهم إلا إذا بخرت حرارة الشمس كل المياه، ونقلتها جبالا ثلجية تناطح السحاب في القطبين، وبقيت اليابسة معراة من الماء، ومغطاة بطبقة سميكة من الملح الذي تخلف عند تبخر الماء، وتحتها جثث حيوانات البحر التي نفقت منذ أمد بعيد عندما زادت كثافة الملح عن الحد الذي يسمح للأحياء بمواصلة الحياة.

لكن ربك العالم الكبير، الذي لم يسمح لشيء في ملكه أن يأتي عفوا، أو رمية من غير رام، جعل هذا الاختلاف في سطح الكرة ليأتي

اليابس كأحسن ما يكون عليه اليابس، ويتجمع الماء ليشكل الحياة بشكل آخر، يكون حيوانه ونباته غير إخوته من حيوان الأرض ونباتها. كما أن ارتفاع اليابس عن سطح مواقع المياه يحقق غرضا آخر من الأغراض التي أرادها الله، منها أن كميات المياه التي تتصاعد كل يوم، لو لم يعد معظمها ثانية لمصادرها، لغرقت الأرض بهذا الماء الزائد عن حاجة أحيائها، ولما تخلصت من الأملاح الزائدة فيها والتي قد تعيق حياة أحيائها.

إذًا، لابد مما نحن فيه، وغيره هو الخطأ، وفيه الهلاك، وتوقف الحياة حتى أن توزيع الكرة الأرضية بين الماء واليابسة، فيه الحكمة ظاهرة. إذ لو كانت المساحة اليابسة هي مساحة الماء، ومساحة الماء هي مساحة اليابسة، لاقتضى ذلك وجود حرارة أشد من الحرارة الحالية، لتستطيع إرواء اليابسة الشاسعة من هذا الجزء البسيط من الماء، والذي لن يبلغ ثلث الكرة الأرضية عندئذ. وأتصور أن الحرارة ستكون ضعف ما هي عليه حاليا، لتفي بالغرض، ولن تفي به إطلاقا، حتى لو بخرت من الماء ما يكفي. وذلك للعقبات الأخرى، التي تجعلها أكثر ضررا منها نفعا.

إذ أن اليابسة تكون مترامية الأطراف بحيث لا تستطيع الرياح حمل المياه لأكثر مما نعهده في الرياح، التي ترمي أثقالها على الأرض، بحيث لا يصيب النائي منها عن البحار، إلا ما لا ينفع النفع المرجو منه لإقامة الحياة النامية القوية، وهذا واقع أمام أعيينا في صحارينا، وفي أراضينا الداخلية.

وعلى العكس ستكون الكميات الساقطة على الأراضي الساحلية وما يجاورها كميات كبيرة مغرقة جارفة. ولكن ما الفائدة من هذا، حتى لو وزعت المياه على اليابسة كأحسن ما يكون التوزيع؟؟ فهل هناك أحياء جاء الماء لإبقائهم أحياء ويعينهم على النماء؟؟ من أين للأحياء مقام، وقد أبادتهم تلك الحرارة التي تضاعفت ليتضاعف البخار؟؟ والذي سيسقط

أمطارا غزيرة تعود سيولا وأنهارا تحمل الملح بعد غسل سطح الأرض، فيتضاعف الملح مع مرور الزمن، فتهلك أحياء المياه.

وما يدريك، لعل جعل نصيب الماء هو الأعظم، فيه الخير الذي عرفنا بعضه: فمثلا، لولا هذه القسمة الحكيمة لما كانت هناك هذه الكميات من البترول، والتي يقدر أن تخدم البشرية بضعة قرون، ولما أسهمت هذا الإسهام الجليل والوبيل أيضا، في إقامة هذه الحضارة العلمية الراقية، ولما مهدت لوقود أعظم سيغني عن البترول، ألا وهو الذرة! ولا ندري ما الذي سيكشف عنه المستقبل من حكم متعددة لهذا التوزيع!!

إذًا، هناك حكمة وراء هذا الأمر، وهناك علم حقيقي تقام الموجودات بمقتضاه، فيه السلامة والنماء واستمرار البقاء بتناوب الآثار الكونية وتعاقب أجيال الأحياء، لا إفراط ولا تفريط.. بل الناموس الموزون الذي يحرك كل ما يخضع له بحساب دقيق قدره الله فأحسن تقديره، ولا غرو فالله خير الحاسبين وخير المنشئين، الذي ما أنشأ شيئا إلا وجعله غاية الكمال متعدد النفع لغيره. ولك أن تعدد منافع الأرض والبحار، والهواء، والشمس، وأي شيء آخر تجد منافعه عديدة، وكلما تقدمنا علميا، كلما وقفنا على فائدة جديدة.

فهذه الشمس أصبحنا ندرك العديد من آثارها على الأرض وكائناتها، ولو شئنا عدها لعجزنا، فماذا نعد أو نحصي؟؟ هل نقول إن حرارتها المختلفة من قارة إلى قارة، أثرت في سحنات سكان تلك القارات، فباينت بينها تباين المناخات فيها، وجعلت سمات الأفريقي تختلف عن سمات الأوروبي، وهما مختلفتان بدورهما عن سمات شعوب شرق آسيا!! أتذكر أثر ذلك في العادات وأسلوب الحياة؟ أم أثرها السحري في تلوين موجودات الأرض، بهذا الدهان العجيب، الذي يمثل ألوان الطيف

السبعة أو يمثل تمازجها، أم نعدد آثارها في المذاقات المختلفة التي نطعمها فيما نطعم؟؟ أو أثرها الصحي على الأجسام؟؟ شيء عديد لا مجال لإحصائه.

فنترك للقارئ الكريم الاستزادة من الإحصاء، وتتبع آثارها حسبما يشاء، ولنثق مقدما أن ما أمامه فوق طاقته، لأن آثارها تتسرب تسرب ضوئها، وضوءها يغمر الكون والكون أوسع من أن يحصي موجوداته فرد، وليست هذه الكلمة دعوة لليأس ولكنها تعبير عن جلال الآثار وسعتها، مما يتيح للمتقصي لعلامات الإبداع أن يجد بغيته بيسر وسهولة، ويقف على إعجاز ربه فيما صنع. فأنت ترى أن الشيء الواحد، متعدد الآثار، وكلها آثار لابد منها. ولو وقفنا على حقيقة أمرها، لما اخترنا سواها، فالأنف الأفريقي يجب أن يكون كذلك في المناخ الإفريقي، وإلا لما استطاعت الرئة أن تؤدي واجبها. والأنف في شمال أوربا يجب أن يكون كذلك. وإلا لفتكت برودة السويد برئة السويدي، ومات بالنزلات الرئوية، ولون الإفريقي لا بد أن يكون كذلك. وإلا لتحطمت أعصابه من أشعة الشمس، واختل فكره وجهده، وبالتالي حياته، وقل لي: ما الذي يحمي رأسه من ضربة الشمس؟ أليس من الأنفع له أن يتجعد شعره، وينكمش بهذا الشكل، ليكون طبقة عازلة لتخلل الهواء لها؟ وأن الخير كل الخير في أن يكون لونه كذلك لتبقى أعصابه هادئة تظلها هذه الطبقة الظليلة ؟!

سبحان الذي جعل الإعجاز تعبيرا عن قدرته التي لا تدانيها قدرة، كما جعله تعبيرا عن علمه الواسع. الذي استطاع أن يجعل الشيء الواحد عديد المنافع والأغراض، ليؤدي الدور الذي من أجله خلق، على أتم ما يكون كمال الأدوار. وجعل الأشياء مترابطة مع بعضها البعض، مما يدل دلالة قاطعة على أن موجدها ومدبرها واحد، فلو أنه لم يكن كذلك،

لانتفت الحياة، لأنه قد يودي بها ويمحوها أبسط الأسباب.

فمثلا... لو أن كل أثر من آثار الشمس على الأرض جاء تاما كاملا. باستثناء أثر واحد، يتراءى لبعض الناس أنه سيان إن كان أو لم يكن، كاللون الأخضر مثلا، لزالت الحياة من على هذه الأرض، وأصبحت قفرا من النبات والحيوان، لأن النبات لا يتم تمثيل الغذاء فيه، إلا بوجود هذا اللون الأخضر وضوء الشمس، فإن لم يحدث ذلك، فلا تمثيل لغذائه، وبالتالي يموت، ليلحق به الحيوان والحشرات، بشتى أنواعه وقبائله، فيكلح وجه الأرض، وتصبح خرابا بعد عمران.

لا مجال إطلاقا لسرد الأسباب التي تكاتفت، لتأتي الحياة خصبة عظيمة متدفقة على الأرض كما ترى، ولا شك في أنه لو اختفى سبب من الأسباب الرئيسة، لأصبح وجود الأشياء الأخرى عبثا لا جدوى منه للحياة. فالأكسجين والأيدروجين وثاني أكسيد الكربون، والنيتروجين...، كل منها لو لم يكن، لما كانت الحياة حسب هذا الناموس... اللهم إلا بناموس آخر.

ما الذي نفهمه من هذا؟ أجاءت كل هذه النظم التي تضافرت بشكل دقيق ومتقن للغاية، حتى جاءت الحياة بديعة كما نرى، متكاملة بموجوداتها مع بعضها البعض، أجاءت هكذا رمية من غير رام أو خبط عشواء؟ أم جاءت عن حكمة وتدبير وعلم واسع وقدرة قادرة على الخلق؟؟

لقد جاءت معجزة في الخلق، لأن ما خلق غير محدود النفع، كما يصنع البشر، بل متعدد الفوائد والأغراض، مما يتناسب وعلم الصانع الأعظم، الذي نلمس منه الإعجاز في كل ما صنع.. ألا له الملك وحده، فوحده أقام كونه ونظمه وخلق ما عليه. فجاءت كل مخلوقاته شاهدة بأنه أحسن الخالقين، وأدار ما خلق بحكمته وقدرته ورحمته، فحقق للجميع

الأمن والسلامة، ولم يترك لشيء حرية الطغيان على الأشياء الأخرى ليبيدها، وإن أعطاه شيئا من التسلط المقنن ليصيغها حتى يذهب غثاؤها وتصلح للحياة، وإنه جل جلاله على ذلك لقدير، وبحكمته تسير الأمور على سنن تكفل تضامن مخلوقاته على درب الحياة، وما مسيرة أحياء هذه الأرض إلا مثل على ذلك.

الأحياء على الأرض

(أ) الارتباط المصيري بين الحيوان والنبات ورأي القرآن في ذلك

كل متتبع لسنن هذا الكون وآثارها، يدرك أن لله سبحانه وتعالى وسائله التي تتناسب ومقامه الجليل وعلمه الواسع، فخذ مثلا أرقى الشبكات المائية، ولك أن تغالي ما شئت في وصفها، أو تصور ما قد تصل إليه في أرقى العصور المقبلة، وانظر إلى هذه الشبكة المائية الهائلة التي أنشأها العلام المقتدر، حرارة قيظ متزايدة، تعم السطوح المائية فيتصاعد الماء بخارا ليتحرر من جاذبية الأرض. وإن أجرينا الماء في أنابيب عاجزة محدودة، فقد أجراه سبحانه وتعالى على متن الهواء، متصاعدا ومندفعا نحو اليابسة.

وعندما يصل للجهة المهيأة موسميا لنزول المطر، يتعرض البخار للبرودة، فيتكثف مرة أخرى، فتعاود الجاذبية فعلها، فيهوي إلى الأرض رذاذا أو مطرًا غزيرا، موزعا بإحكام تقصر أجود المرشات عن توزيعه بهذه الكيفية، وليس على آلاف الأمتار المربعة كما تفعل أقصى جهودنا، بل يشمل مئات الآلاف من الكيلومترات المربعة، وبكميات تفي بالإرواء الفوري وتخزين الجزء الأعظم في باطن الأرض، ليمتص منه النبات ما يلزمه، لا على مدار السنة فحسب، بل لسنوات. وليشرب منه حيوان الأرض لسنين طويلة على هيئة آبار وينابيع وأنهار وسدود وبحيرات.

كما أنه جلت قدرته جعل حرارة اليابسة أيام الصيف أكثر من حرارة السطوح المائية، مما تقل معه كثافة الهواء في الأجواء القريبة من الأرض، فتصعد هذه الطبقات إلى الأجواء العليا، فيندفع هواء البحر المشبع بالبخار نحو اليابسة لملء الفراغ الذي حدث، وهذا يجعل حركة الهواء مستمرة نحو اليابسة، فيستمر تجديد الهواء الذي على سطح الماء. وبذا تتاح له القدرة

على استيعاب كميات البخار المتصاعدة من السطوح المائية بصفة مستمرة، لأن الهواء لا يصل للدرجة القصوى من التشبع بسبب حركته المستمرة نحو اليابسة كما أبنًّا.

وهكذا تدور الآلة الربانية التي تضخ الماء من مصدره، ليوزع حيث يشاء صاحب الآلة الكبرى على أقسام المزرعة العظمى التي حان ميقات سقياها.

وما ذلك إلا لأن الشمس ترسل أشعتها الكونية بتوزيع دقيق، يلائم الحياة على الأرض، ويحقق أغراضها، إذ يشيع دفؤها في المخلوقات جميعا، فيقبل كل على ما خلق له بحار ومحيطات ومصادر شتى للمياه، يصعد بخارها مكونا السحاب الثقال، تحمل الماء ركن الحياة الركين لشتى الجهات، فترتوي الأكباد الحرّى، وتربو الأرض وتنبت من كل زوج بهيج. ونبات نزل عليه الغيث فدبت فيه الحياة، وظهر ينعه وصلب عوده، وتفرعت أغصانه، وجاء أخيرا ينوء بحمله من ثمار مختلف مذاقها وألوانها، وحيوان يسعى على مائدة ربه الكبرى، المتمثلة في الأرض المحملة بما تشتهيه الأنفس من الخيرات الحسان، التي يجدها جذورا تحت السطح، وثمارا بلا سيقان تفترش السطح، وأخرى تعلوها تدرجا حتى تتجاوز العشرة أمتار، لينغمس في أنعم ربه من رأسه حتى أخماص أقدامه.

وبعد أن ينال من حَمَل الأمانة من هذه المائدة بنهم ما ينال، يدب النشاط في أوصاله، وبدلا من أن يتقدم بالشكر لمن رزقه على ما رزق، يأخذه النزق والغرور، وسفاهة الفكر، وغدر الضمير. فينكر فضل من خيره متخمة به معدته، ومترعة به عروقه. وأعني به الظلوم الكفار الذي لم يحاول أن يسأل نفسه: كيف تمت صناعة هذه الأصناف من الخيرات المختلفة الأشكال والألوان والمذاق، والتي لا دور لنا فيها إلا كدور الطاهي بما لديه

من طعام، لأن الفضل في حصولنا عليها يعود إلى هذا النبات الذي جعله الله لا يبرح مكانه، فحدد سعيه بضرب جذوره بعيدا في الأرض بحثا عن عناصرها المختلفة، ليحولها إلى هياكل شتى، تغطي الأرض بخضرتها وظلها الظليل، وأزهارها العطرة، وفي ميعاده مع حيوان الأرض وحَشَرها، يقدم خيراته الوفيرة، لا مقطوعة، لتتابع مواسمها، ولا ممنوعة، لأنه لا يذب طاعما يريد طعاما. فهو مفطور على أن يكون كذلك، وقفا على خدمة الحياة في هذه الأرض واستمرارها. لأنه الأم الحانية الوحيدة في هذا الكوكب، والتي لا منهل لكل ذي كبد حي إلا من ضرعها.

وكأن رسالة الحياة على هذه الأرض قد نصفت بين كائنين حيين، كائن مستقر في مكانه لا يبرحه وهو النبات... وآخر يسعى في مناكبها وهو الحيوان، وعلى المقيم تزويد الساعي بعناصر هيكله وطاقة جهده، وبهذا تكون للنبات رتبة الأساس في بناء صرح الحياة واستمرارها في هذه الأرض التي نستقر عليها.

والعلاقة بين الحيوان والنبات جديرة بالتوضيح، لأنها مليئة بالحكمة الإلهية والعلم العظيم الذي يتضح من تقصي أمر هذا النبات الذي نذر نفسه وسيلة للحيوان ليبقى حيا يسعى وهو (أي النبات) مشدود إلى الأرض ينقب بلا كلل عن العناصر المختلفة الممثلة في الأملاح المذابة في الأرض بواسطة الماء، حيث ترفعها جذوره ليصعد في النبات الذي قد يصل ارتفاعه في بعض الأشجار إلى عشرات الأمتار، وذلك بأقوى آلة رافعة نسبيا.. ألا وهو الضغط الأسموزي الذي تلعب فيه كثافة العصارات والنتح الدور الأعظم، مما يعطي الشجرة القوة على رفع الغذاء إلى كل أجزائها بعد سحبه من الأرض على عمق بضعة أمتار، وعلى بعد من ساقها قد يتجاوز مئات الأمتار.

وطريقه في الصعود لبها... حيث يوزع على الأوراق، ليتم التمثيل الغذائي هناك بحضور الضوء واللون الأخضر، فتختزل الطاقة من الضوء، وثاني أكسيد الكربون من الهواء، والأيدروجين من الماء لينطلق الأكسجين الذي يعطى للهواء بدلا مما أخذ منه من ثاني أكسيد الكربون الذي اتحد مع أيدروجين الماء والطاقة وبقية العناصر مكونا الغذاء الذي تقوم الأوراق بتجهيزه، كما تفعل معدة الحيوان وأمعاؤه، ثم يعود، وليس طريقه اللب كما صعد.. بل اللحاء. ليغذي كل خلية في الشجرة من أعلى فرع فيها إلى أعمق جذير يبحث في ظلمة الأرض عن غذائها، كما يفعل عمال المناجم وراء عروق المعادن.

وهكذا يستوي النبات على سوقه، ويبدأ في تخزين الغذاء لأبنائه حيوان الأرض، وطرقه في التخزين عديدة تعدد أنواعه وفصائله التي تتبارى في أداء الواجب نحو الحيوان، فالغذاء قد اختزنه له، والأكسجين أطلقه، فما عليه إلا أن يأكل مريء الطعام، ويستنشق نقي الهواء في وارف الظل... فتكتمل له أسباب البقاء والقدرة على مواصلة الحياة نماء وحركة وترميما لما أفسد الدهر من جسمه ويتم له ذلك بهضم ما أكله من نبات، ليتحول إلى عناصره الأولية فيأخذ كل عضو بل كل خلية من جسمه ما يلزمها من غذاء توزع ذراته على خلايا الجسم بالقدر الذي يفي بالغرض، فيلتقي بها الأكسجين الذي تختزله الرئة من الهواء، ويحمله الدم لكل خلية، كما فعل بذرات الغذاء، فيتأكسد الغذاء ويختزل ثاني أكسيد الكربون الذي تطرده الرئة فيعود ثانية للهواء، وتنطلق الحرارة التي اختزلها النبات وحفظها في الغذاء الذي قدمه للحيوان. وعند انطلاق الحرارة في الجسم يحول قسما منها إلى طاقة حركية. فيتم له الدفء والحركة الإرادية واللاإرادية كل حيوان حسب رتبته الحيوانية المتدنية والمتسامية وما بينهما من درجات.

ودقة التمثيل الغذائي فيه تتوقف على جودة غدده وأعضائه وصحته العامة، كما أن دقة التمثيل الغذائي تتم في النبات تبعا لشدة الضوء وقوة الضغط الأسموزي، وجودة عصاراته وأجزائه وسلامته من الآفات، وتقنين الماء والأملاح المذابة في الأرض التي تتشعب فيها جذوره.

إذًا، هناك ثاني أكسيد الكربون الذي لا حياة للحيوان إن لم يطرده. وعلى العكس، هناك النبات الذي يقف له الموت بالمرصاد، إن لم يحصل على ثاني أكسيد الكربون. ولذا فهو يطرد الأكسجين سراعا في سبيل الحصول عليه. وبالمثل فهناك الحيوان الذي طرد ثاني أكسيد الكربون، فإن الموت لن يمهله أكثر من دقائق إن لم يحصل على الأكسجين.

وبذا يتضح لنا الارتباط المصيري بين الحيوان والنبات، مما يجعل حياة أحدهما رهنا بحياة الآخر، وموت أحدهما مرتبط بموت الآخر.. كقطبي الكهرباء السالب والموجب، التقاؤهما فيه الضوء والحرارة والحركة، وانفصالهما فيه تعطيل لكل ذلك، وهكذا قطبا الحياة النباتي والحيواني، بالتقائهما يتم نبض الحياة وضياؤها وازدهارها وعمرانها. وانفصالهما فيه الموت والفناء للجميع.

بل إنك إذا تدبرت أمرهما، وجدتهما ينهجان في الحياة نهجا يكاد أن يكون واحدا، فيه التآزر والتضامن. ولذا لا بد من تشابه رئيسي في تكوينهما وتمثيلهما الغذائي وإطلاق الطاقة فيهما، وهذا هو واقعهما فعلا، ولكن بطبيعة ليس فيها التزاحم بل التراحم والتتامم.

فالحيوان في تنفسه يحتاج إلى الأكسجين، ليؤكسد ذرات الغذاء في خلاياه، لتنطلق الطاقة، فتدور فيه عجلة الحياة، وكذلك النبات يحتاج إلى الأكسجين، وإن كان بقدر ضئيل يتناسب مع حجمه ونمائه وضرب جذوره في أعماق الأرض، ويخال لنا هنا أن هناك تزاحما على هذا الأكسجين.

والحقيقة أن النبات من أكرم مخلوقات الله وأنفعها للمخلوقات الأخرى، فهو كالنحلة التي تجمع رحيقا أكثر بكثير مما تحتاجه لغذائها، فتحوله إلى عسل فيه الغذاء والشفاء لها وللآخرين، وكذلك النبات... فإنه يختزل كميات من الأكسجين تحقق له وللحيوان رصيدا لا يقل عن خمس الهواء، فإذا أضفنا هذا العمل الجليل الذي يقوم به النبات إلى ما سبق أن ذكرناه عن دوره في اختزال عناصر الأرض ليبني بها نفسه، ثم يقدم كل جسمه وجهد جسمه لحيوان الأرض وطيرها وحشرها، علمنا مدى ما لهذا النبات من دور خطير على هذه الأرض.

وحتى يبقى الهواء نقيا من ثاني أكسيد الكربون الذي يعتبر العادم الذي تلفظه رئات الحيوانات، جعل الله للنبات خاصية الاستفادة من هذا العنصر.. إذ باتحاده مع الأيدروجين والطاقة وبقية العناصر يدخل في بناء جسمه.

ولذا نلاحظ النماء السريع للنبات عندما تتوفر الشروط، ومن أهمها ثاني أكسيد الكربون. حتى أن بعض الناس يعمد لإطلاق الدخان بين الأشجار وقت اشتداد الضوء، لقدرة النبات آنذاك على استيعاب كميات أكبر من ثاني أكسيد الكربون... كما أنه يفضل أن يروي النبات قبل تدخينه بيوم لتتوفر في أجزائه كمية الماء اللازمة، وبذا تكتمل للنبات كل أسباب التمثيل الضوئي.

ولما كان ثاني أكسيد الكربون مهما لهذه الدرجة للنبات. فلا بد من مورد ثابت يتزود به. فاقتضت حكمة الله أن يجعل هذا دور الحيوان بصفة رئيسية، وللنبات دور ضئيل في ذلك يتناسب وما يأخذه من الأكسجين الذي يفي قليله بإطلاق الطاقة في النبات ليقوم بحركته المحدودة.

أما دور الحيوان فهو المهم. إذ إنّ رئته تختزل الأكسجين من الهواء كما

سبق أن ذكرنا – وخياشيم الحيوانات المائية تختزله من الماء، فيحمل الدم العائد من الرئة والخياشيم الأكسجين إلى كل خلية في الجسم، فيؤكسد ذرات الغذاء في الخلايا، فتنطلق الطاقة التي اختزلها النبات أصلا من الشمس، وينطلق أيضا ثاني أكسيد الكربون – الذي قلنا: إنه اتحد مع أيدروجين الماء وبقية العناصر – وليس أمامه إلا أن يعود ثانية للهواء ولكن عن طريق الحيوان في زفيره، فكأن ثاني أكسيد الكربون إناء استعاره النبات من الهواء، ليغرف به طاقة الشمس وعناصر الأرض كي يوصلها للحيوان حرارة وحركة ونماء، والحيوان متكفل بإعادة هذا الإناء لصاحبه الأصلي وهو الهواء.

والعجيب أن جسمي الحيوان والنبات، يتبعان نفس الأسلوب في استعمالهما لمصادر الطاقة فيهما. فهما أولا يعمدان إلى الكربوأيدرات لإحراقها للحصول على الطاقة، فإن نفدت، أقدما على استعمال الدهنيات، وإذا نفدت هذه، عمدا إلى المخزون الأخير وهو البروتين. وهذه أخطر المراحل التي يتعرضان لها... إذ يتعرضان للتضاؤل وتراكم الحموضة السامة فيهما، مما يهددهما بالخطر الداهم.

ولا شك أنك معي في أن هذا يدل دلالة واضحة على أن هيكل النبات بكل ما فيه من عصارات وأنزيمات وتشكيل أوراق، وتوزيع أجزاء... جاء نتيجة علم لا يمكن أن يدانيه علم، وأنه مليء بالشواهد على خبرة العالم الذي أنشأ هذا الجهاز العجيب... بذرة تلقى في الأرض، فتأتي بالمدهشات وجليل الرسالات بتقديمها مواد البناء لجسم الحيوان والطاقة لسعيه... مما يؤكد أن النبات وسيلة الحيوان للنماء والبقاء والحركة، وقد توسل بها لدى الأرض للحصول على عناصرها التي هي أساس هيكله، كما توسل بها أيضا إلى الشمس لتمنحه الطاقة حرارة وحركة.

ويتضح ذلك من السؤال الآتي : هل وجد النبات ليبقى الحيوان حيا؟ أم وجد الحيوان ليبقى النبات حيا؟

والجواب هو أن النبات غذاء الحيوان ووسيلته للبقاء. بمعنى أن النبات هو الوسيط بين الحيوان والأرض، وأن ما أخذه منها أعطاه له سلفة، يلتزم الحيوان بردها ثانية للأرض وليس للنبات وذلك بفعل البكتيريا التي من مظاهرها هذه الخمائر والعفونات التي تضايقنا وتبعث الاشمئزاز والنفور في نفوسنا بروائحها الحادة أو العفنة. ولكن دقق الأمر، تجد أن عظمتها بل وبركتها وفضلها على الأرض وما عليها يفوق الوصف فلولاها لما تحللت النفايات اليومية التي تلفظها أجسام الحيوانات، ولما تحللت أجسامها عند ترك الأرواح لها. ولتكدس النبات أكواما لتفلس الأرض بعد حين من عناصرها اللازمة لبناء أجسام جديدة، ولخلا الهواء من الآزوت الذي يشكل أربعة أخماس الهواء، والذي يهبط بعد أكسدته برفقة الماء إلى كل خضراء ليكون لها غذاء.

ولك أن تتصور كم سيتكوم على الأرض من جثث وكتل خشبية على مر القرون، والتي لا يمر قرن إلا وكل ما يعايشنا من كائنات قد فارق الحياة وهكذا حتى تصبح الكتل الحيوانية والنباتية الميتة تلالا. فتأخذ الحياة في التلاشي رويدا رويدا لانقطاع مدد العناصر البانية لأجسام الأحياء...

وأخيرا تنتهي الحياة لانعدام البكتيريا التي هي أقدر كفيل عرفه متعاملون. فهي تعيد الديون عينها للأرض بكيفيتين : قسم يعود مباشرة للأرض، وقسم يصعد في الهواء حيث يؤكسده الأكسجين بالتدريج ليسقط ذائبا في المطر على الأرض.

وبهذا تصعد روح الحيوان لخالقها وليس للأرض عليها ذرة من دين اقترضته منها.

أما الطاقة التي حصل عليها من الشمس، فإنها لا تستردها منه كما تسترد الأرض عناصرها.. بل يتم تسديد الحيوان لها جهدا يقيم به عمرانا على الأرض أو هدم عمران أقيم عليها.

من هذا يتضح لنا أن أمعاءنا هي جذورنا تمتص غذاءنا من الأرض بواسطة هذا المحول الذي نسميه نباتا، كما تتزود بعض الأجهزة بطاقتها الكهربائية بواسطة المحولات المعروفة. لأنها لا تقوى على أخذ طاقتها مباشرة من التيار القوي. وكذلك فإن أمعاءنا لا تقوى على استخلاص عناصرنا من الأرض، لا لعجز في القدرة الإلهية.. بل لأنه ألزم الحيوان بالحركة.

وهذا لا يتناسب مع ربطه بالأرض دوما ليمتص غذاءه، فأنشأ له هذا المحول العظيم يغشاه كلما لزمه ذلك ليزود جذوره المحمولة.. ألا وهي أمعاؤه بشحنة جديدة من غذاء تتولاها هضما، والحيوان مستمر سعيا، تماما كعلاقة الآلات الراكضة أو الطائرة أو السابحة بمحطات البترول التي تحتفظ بنتاج الأرض، لما يسعى على الأرض، وكما أن الجهاز الكهربائي يعمل بكهرباء التيار العالي بوسيلة هي المحول، فنعلم يقينا أن الحيوان ينمو من الأرض بالطريقة التي أوضحناها، ألا وهي النبات.

رأي القرآن في ذلك

لقد قرر القرآن الكريم الذي نزل منذ أربعة عشر قرنا هذه الحقيقة التي تنطق اليوم في عصر العلم بالإعجاز المبين. إذ يقول عز من قائل: ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ [نوح: ١٧، ١٨] وقال تعالى في موضع آخر: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠]. وأوضح الله ذلك بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ...... ﴾ [الحج: ٥].

حقائق كما ترى يقررها القرآن يوم نزل. ويجيء العلم أخيرا ليفصل لنا بيان هذه الآيات الجليلة المعجزة، والكيفية التي خلقنا بها من التراب، فيقرر أن النطفة هي مجموعة هائلة من الحيوانات المنوية يكفي أحدها للإخصاب. وهذا الحيوان المنوي مكون من عناصر الأرض كأي خلية أخرى في الجسم! وعند الحمل يتحد الحيوان المنوي بالبويضة المكونة أيضا من عناصر الأرض ويستقر الحمل في الرحم، لينمو من غذاء أمه.. مما يؤكد أن الله قد أنبتنا من الأرض نباتا، بعناصر تسري في النبات لتواصل سريانها في أجسامنا عن طريق المشيمة ونحن أجنة ومن ثم عن طريق أمعائنا بعد الولادة، فإذا نحن بشر ننتشر، ومبادئ علم الأحياء تؤكد ذلك بناء وكيمياء.

فلمن يرد كل هذا؟

وما قول القارئ الكريم في هذه الآيات المعجزة؟؟ التي يستحيل أن يقولها بشر منذ أربعة عشر قرنا مهما كان عالما. لأن العلم كان في مدارجه الأولى. وليعطي الله هذه الآيات البرهان الساطع بأنها قول رب العالمين أنزلها على الأميين في صحرائهم، وحيا للنبي الأمي الذي كرمه الله بأشرف

علم وأسمى رسالة.

ألا جلَّ شأن من أنبتنا من الأرض نباتا، ثم يعدنا فيها عناصر مرة أخرى، لتعود للأرض كي تأخذ طريقها في النبات ثانية لإقامة أجسام قدر لها أن تحيا وتؤدي دورها.... وهكذا حتى تنتهي الحياة... ثم يخرجنا أشتاتا يوم يحين موعد خروجنا منها لنرى أعمالنا. والله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء فهو المبدئ والمعيد، والفعال لما يريد، لمطلق قدرته، وعلمه القادر على الإبداع المتفرد به سبحانه.

ب- أجسام الأحياء

نشأتها وتوارث صفاتها، دلالة إعجاز

لقد وصلت قدرة الله من الكمال لأن يقول للشيء كن فيكون.. ومثال ذلك، الأجنة في الكائنين، الحيواني والنباتي، شاء الله أن توجد لتبنى الحياة، فتراها دائبة على ذلك منذ بدء الخليقة، وحتى تنتهي الحياة، وكل ما حولنا، بل وفي أنفسنا، يدل على علم لا يدانيه علم.

فالإنسان مثلا تحمل أنثاه عند تلقيح البويضة بالحيوان المنوي، ومع أن هذا الحيوان وهذه البويضة لا يريان إلا بالمجهر، فإنهما يحملان صفات الآباء والأمهات اللذين انحدرا منهم مهما كانت هذه الصفات ثانوية، كلون الشعر وشكله، ولون العين وفتحتها، وثلج رباعيات الأسنان، حتى نصبة الأذن وشكل صيوانها، وأنت إن لم تلمح في الوليد بعض صفات أمه وأبيه، فإنك تلمح بعض صفات أجداده أو أعمامه أو أخواله، ومع هذا، فإن له شخصيته التي يعرف بها، وتميزه ممن سواه تماما كما نرى بعض الحروف، مشتركة في بعض الكلمات المختلفة المدلولات المعنوية، فكيف أمكن للحيوان المنوي والبويضة، وهما من الضآلة بحيث لا يريان بالعين المجردة أن يحتفظا بصفات سلالتيهما؟ وإن اختفت في الأبناء فلا بد أن تظهر في الأحفاد أو أحفاد الأحفاد.

والعجيب أن احتفاظهما بالصفات هذه يكاد أن يكون شاملا: كالذكاء والعته، والجمال والقبح، والقوة والضعف، والضخامة والضآلة، وحتى الأمراض قد يرثها ويورثها.

وإن جئنا بهذا مثلا على الحيوان، فإن النبات الذي فيه من العجائب بما فيه، لا يشذ عما وصفنا به الحيوان. فشجرة الجميز التي قد تصل من الضخامة بحيث تعجز عن حملها السيارة. بل يمكنك أن تعلق السيارة في أحد فروعها، فإن أصلها بذرة لو أكل الإنسان ثمرة من ثمارها لاختفى بين

أسنانه من بذورها ما يكفي لإنشاء بستان كبير من شجر الجميز الضخم الذي يختفي أهل قرية تحت إحدى أشجاره. وإذا فحصت تلك البذرة وجدت أن الجنين أصغر أجزائها ومع هذا يحتوي على صفات أشجاره وحتى الأمراض يحملها أيضا، تماما كما قلنا عن جنين الحيوان.

فيا ترى، كيف تأتت هذه القدرة لهذه الأجنة لأن تكون كذلك؟ وأن تصون بأصالة ودقة متناهيتين صفات الأنواع وشتى الأجناس؟ وترى جودة الصياغة العلمية واضحة في تكوين الأجنة، والدقة والإبداع يخلبان الألباب! وتجد النشأة للجميع ذات كيفية واحدة، مع اختلاف الوسيلة إلى ذلك، إذ أن من الأجنة ما يقضي فترة الحضانة معتمدا على أمه مباشرة بواسطة المشيمة، كما هو ظاهر في الحيوانات الولود. ومنها ما يعتمد على الغذاء الذي أودع له في البيضة أو البذرة، كما هو في بذور النبات، والحيوانات التي تتناسل عن طريق البيض. ووحدة الهدف والوصول إليه بمختلف الوسائل، ظاهرة واضحة في كل موجودات هذا الكون. فهدف الجنين أن ينمو ويكتمل ويظهر للحياة.

ولكل نوع من الأجنة طريقته في الوصول إلى ذلك. تماما كاختلاف سعي أجناسها التي منها ما يحبو لغايته، ومنها ما يطير، ومنها المكب في مشيه، أو السوي فيه، ومنها ما يعوم في لجج البحار، أو ما طريقه بطن الأرض، كالهوام والحشرات، أو ما هو حبيس الأرض، محدود الحركة كالنبات. الكل ملزم بالسعي لهدفه، بوسيلته التي تناسبه وتلائم طبيعته التي فطر عليها.

ألا إن من أودع الأجنة هذه القدرة، وزودها بكل ما يناسبها في دور حضانتها، لهو صاحب علم تعجز البصيرة عن سبر أعماقه، وإن كان للعلماء حظ في إدراك بعض ظواهره التي تملي عليهم خشيته، فإن مبلغ

علمهم لن يتعدى قدرة البشر التي هي بعض تطبيقات علمه.

وبديهي أنه لو اجتمع صفوة العلماء في هذه الدنيا كي يصنعوا حشرة لما استطاعوا صنع جناحها ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

أما هو سبحانه فبسطها، فما أن يلتقي زوجان من أي جنس، إلا وحملت أنثاه بعضو ثالث، يحمل صفات جنسه كاملة، وما أعقد صفات جنسه.

وقد خالف بين تكاثر الأزواج، فمنها ما تنتج أنثاه في الحمل الواحد فردا واحدا، ومنها ما تحمل ألفا، كل حسبما رسم له، وليس العجب في هذا فحسب... بل في كل ما يتعلق به.

تتبع مواقيت حياة هذه المخلوقات... واختر زوجين من أي جنس كالذباب مثلا، تجد أنه لو هيئت لها أجود الظروف الحياتية وأعطيت سلالتها سنة عمرا بدلا من أيام لا تبلغ الشهرين، لغطت الكرة الأرضية، ولما بقي لساعٍ مسلكا.

فسبحان الذي وقت المواقيت لكل ما خلق، وحدد دورات إخصابه ونضجه وفنائه، فلو لم يوضع ميقات كل شيء بحسبان، لطغى هذا وفني ذاك، ولك أن تتصور أن لو كان عمر الإنسان مائتي سنة كما يريد جلنا، ويبلغ الرشد في عشر سنوات، وأنثاه تلد أربعا، وجاءت الظروف على هواه، لا ينقص من الأربعة أحد، ولا يموت من نسله فرد إلا بعد المائتين، وهو يريد لهم أن ينعموا بالغذاء الوفير المتعدد الأصناف، فثق أنه لو كان الأمر كذلك، لزاد البشر عن سعة الأرض في مدة وجيزة، وأفنوا ما عليها أكلا، ولما بقي لواقفهم موقفا، ولا لقاعدهم مقعدا، ولاضطرتهم غريزة البقاء لأكل بعضهم بعضا، ولصار سعر ألمع الأشخاص لا يعادل حفنة من تراب، أو ضمة من عشب، ولانحطت معاييرنا الاجتماعية، حتى تأتي بعد

معايير السمك، بالرغم من أنه يقتات ببعضه البعض.

يتضح من هذا، أن كل أمر في هذا الكون، جاء عن فكر وتدبير وبإحكام دقيق. إذ لو نقص عما هو عليه، أو تجاوز المرسوم له، لاختلت الحياة، وفقدت قيمتها ومعناها.

وكم من مرة تمنينا أن يكون حظنا من الدنيا كيت وكيت، ولو أن الله استجاب لنا هذه الأمنية، وأعطى لكل إنسان مثلها، لكانت الأمنية وبالا على البشرية، فتبارك الذي يتولى الأشياء بهذه الدقة التي تؤلمنا أحيانا، وهذا التقنين الذي يضايقنا. لأننا نأخذ الأمور بهوى النفس، والهوى أخطر رائد، ولا يدل على سوي الصراط. لكن الله لم يتركنا لأنفسنا التي ستودي بنا، لو رُمي لها الحبل على الغارب، ولانحطت القيم جميعا من على الأرض، وزالت كرامة الإنسان، ولعدنا وحوشا ضارية تأكل المخلوقات جميعا، فتفنى غيرها ثم يطويها الفناء كما طواهم.

لكن الحمد والثناء كله لله الذي لم يهمل شيئا مما خلق فهذا التقنين الذي تجده في كل شيء تدبرته ينطق بالرعاية الشاملة التي تستشف منها دلائل رحمته سبحانه وتعالى بالجميع فهذه الأجسام اللطيفة الرقيقة الحال لم يغفلها الكريم من لطفه ورحمته، فحنا عليها، بتوفير المناخ المناسب لها، ولم يقس عليها فيعصف بها، ومع هذا لم تكن رحمته معطلة لمسيرة الكون، كي يدب على مهله وئيدا مع رقاق الحَشَرِ، ولطاف المخلوقات الأخرى، بل هيأ الظروف المناسبة للجميع، وزود كلا بما يناسبه، فسارت الحياة كما تشاهد، هذا يهدر ويزبد، وذاك يرقص ويغرد، وهذا يفكر ويدبر، وذاك بهيمة لا هم لها إلا فرثها وفرجها تحركها الغريزة وضحالة من عقل، يعين على السعي لحفظ حياته وجنسه، ويمكنك ملاحظة هذا التباين الدال على سعة القدرة، والإبداع والتناسق الدال على وحدانية المبدع، في

كل شيء، لتعلم أن موجودات هذا الكون لها طبيعة تلزمها بأن تتكامل مع بعضها لتتهيأ للحياة الظروف اللازمة لاستمرارها، وأن هذا رسم بحكمة هائلة وبصيرة لا تدانيها بصيرة.

انظر لأي شيء نظرة المتقصي، تجده مهما لطف جسمه ورق، حتى قاربِ العدم، ومهما عظم، حتى جاوز الفهم، تجده قد أنشئ بإبداع لا يرقى إليه إبداع، وفيه الإعجاز المحير للألباب، حتى أننا إذا حاولنا دراسة حشرة تائهة في هذه الأرض التائهة في هذا الكون، فإننا نرى العجب العجاب، ونحتار كيف نحيط بتركيبها، مما يقتضي جهدا جهيدا وإعدادا علميا متقدما بوسائله وتجاربه، كي نقف على كيفية تركيب أعضائها وغددها، والأنزيمات التي تتدفق في جسمها، وكيف يتم التمثيل الغذائي فيه وما الذي يولد فيه الحرارة والحركة، وكيف قدرت قوة كل شيء فيه، حتى جاءت هذه الحشرة موزونة هذا الوزن الدقيق الذي جعل لها هذه الخصائص التي ميزتها عن غيرها من الحشرات.قارن أي شيء في أي كائن بمثيله في كائن آخر من جنس غير جنسه كالأنسولين مثلا، فإنك تجد اختلافا واضحا أو جزئيا بين أنسولين هذا وأنسولين ذاك، وليس هذا وحسب، بل كل شيء يخضع لمثل هذا، فمثلا، خذ أية حاسة كحاسة السمع، تجد أن مدى حساسيته في استقبال الموجات الصوتية تختلف من جنس لجنس، والصوت هو الصوت، لكن موجاته تختلف من جنس لآخر، كما تختلف من فرد لآخر من نفس الجنس.

وهكذا في كل وصف للقبائل الحيوانية، والفصائل النباتية، لا تجد صفة في أحدها هي الصفة ذاتها في غيره، ابتداء من الجراثيم والفطريات المتراصة بالملايين في السنتيمتر المربع وانتهاء بأعظم ما توصلنا لمعرفته من آلاف المجرات. كل له ما يميزه ويحدد ذاته.

عش طول حياتك متفرسا في وجوه الخلق، فإنك ستميز بين الوجوه، مهما خيل إليك أنها متشابهة، بل خذ شريحة من جلد حيوان ما، أو من لحاء نبات ما، وخذ ما يماثله من حيوان أو نبات آخر، وافحصهما مجهريا، فلن تجد سطحا يشبه سطحا، مثلما أن بصمة إبهام لا تشبه بصمة إبهام آخر.

اقطف أية ثمرة تشاء من شتى أنواع الفواكه، ودر بها على بساتين نوعها، فإنها ستجف بين يديك قبل أن تجد أختها التي لا تميزها منها، شكلا ولونا، وتوزيع ألوان، ووزنا، ونسب أملاح، وليس هذا وحسب، بل إنك تلمس التقنين في كل شيء، حتى أن كل عضو في الجسم الواحد، وكل غدة فيه، لها طاقة محددة تتناسب والجسم الذي تحل فيه.

فمثلا: رئة الحيوان، لو قدر لها أن تختزل من الأكسجين كمية زائدة عن الحد لا تتناسب وخلايا الجسم العاملة، وكمية الغذاء المشحونة بها تلك الخلايا، لأغمي على الحيوان إغماءة الموت.

وكذلك لو نقص هذا الأكسجين عن الحد المطلوب لخارت قواه، وانبت جهده، وما استطاع حراكا، ومثل هذا يقال عن جميع أنزيمات الجسم، فإن أي اختلال فيها يخل بنبض الحياة في ذلك الجسم، بل ويفقده هذا الجمال الناشئ عن تناسق أعضائه وأجزائه لانضباط غدده.

ومع هذه الدقة الكيميائية، وروعة البناء، بدءا بأي أنزيم في جوف أدق الحشرات وهياكلها، وانتهاء بالنجوم الضخمة ووقودها الذري، فإن كل هذا، لا يخرج عن قانون الخلق والهدم. هياكل قائمة أنهكها العمل، فهرمت وأصبحت كلا على الحياة بعد أن كانت طاقة الحياة، فوجب عليها أن تحل تشكيلها الهيكلي، لتأخذ عناصره طريقها إلى هياكل فتية تسهم بقوة ونشاط في شوط الحياة الدافق، مما يؤكد عدم تلاشي المادة.

فهي ثابتة لا زيادة ولا نقصان، بل انتقال من كيفية إلى كيفية، ومن

كمية إلى كمية، حسبما يقتضيه التشكيل الجديد الذي دخلت فيه، وكم من أجسام كانت تمثل العظمة والكبرياء والقسوة، أو مثلت اللطف والحنان والوداعة على هذه الأرض، فعادت عناصرها بعد تهدم أجسامها لتدخل في بناء وردة عطرة أو فتاة كالوردة، أو هرة ضالة في تلك الحواري التي كان يتبختر فيها ذلك الجسم المهيب المرهوب الجانب، مما يؤكد لنا أن هذه الأجسام التي نقبع فيها شيء، ومحتواها الروحي شيء آخر.

فما الأجسام إلا آلات قابلة للنقص والزيادة أثناء العمل، بالنماء والسمنة، أو بالبتر والهزال. وقابلة للتفكك يوم يتركها قائدها، أو قل سر الله الذي أودعه فيها، بعد أن يقوم بتنفيذ أغراضه في الحياة بتحريك هذه الآلة حيث يشاء، كما يفعل الحيوان بمختلف رتبه وفئاته، أو لتقوم بعملها المبني على ارتباطها بالأرض وعدم مبارحتها كما يفعل النبات.

ما معنى هذا الإعجاز الناطق في كل شيء؟ لدرجة أن أبرع أطبائنا لا يعلم إلا القليل عن هذا الجسم الغاية في روعة البناء، وعظمة الأجهزة التي تعطي لصاحبه القدرة التامة ليؤدي واجبه الإرادي واللاإرادي؟

إنها الهندسة الرائعة التي ترى فيها الجمال والكمال والتناسق، مما يبهر كل ذي عقل وإحساس، وكيف لا ؟؟؟ وهذه الغدد التي يحسبها البعض من توافه أجزاء الجسم، وهي صاحبة الدور الأعظم والأخطر فيه، فالأنزيمات التي تنبع منها، فيها الحياة بمعناها الكامل، وأي اختلال فيها يحول الجسم إلى سجن رهيب وبغيض لصاحبه لضعف حاله، ووهن أعضائه، إن لم يكن حفرة عذاب يتجرع فيها الآلام صباح مساء، بل مع كل نفس يتنفسه.

(جـ) سلوك الأحياء برهان على رحمة الله وإلهامه

كل من يراقب تصرفات مخلوقات هذه الأرض، يلاحظ أن الله قد وهب خلقه أجزل الهبات وأنسبها وأنفعها، فهذه الأمم من البشر التي هي رأس هرم الحياة، وما يتلوها من صنوف الحيوان والطير والحشر، ترفل في نعمائه التي اتسعت للجميع، وكذلك الأسماك في البحار، منها ما هو كالخيط نحفا، ومنها ما يستطيع شطر المركب بضربة من ذيله، وترى الجميع قد احتواها بحر لجي.

ومع هذا تجدها عفية معافاة، لها رزقها ولها نظام حياتها، كما لحيوان البر أسلوب حياته. وقد جعل لكل نوع منها من الأعضاء والحواس ما يناسبه ويعينه على قضاء حوائجه، وحوائج نوعه على هذه الأرض وما أكثر أجناس هذه الأرض التي يدل سلوك مخلوقاتها وطريقة حياتها، على أن الله قد أودع فيها من علمه وإلهامه ما يكفل لها القدرة على مواجهة ضراء الحياة، والتمتع بسرائها.

وسنعرض لبعض هذه المجتمعات بشيء من الإيجاز كدليل على هذا الإلهام والعناية الإلهية بها، عامدين مجاوزة التحدث عن أرقى هذه المجتمعات.... ألا وهو مجتمع الإنسان لوضوح سخاء الله وكرمه وتكريمه له، مما لا يتسع معه هذا المقام للإحاطة بجلائل الأعمال التي جاء بها. والتي تدل على جليل الإلهام ووافر العطاء من خير العاطين. إذ إن بواكير هذه الأعمال تبشر بقرب سيطرة الإنسان على بيئاته المختلفة وترويض العوامل الطبيعية التي تجابهه وتتحداه، وأن سيتم له قريبا بإذن الله استغلال هذه الطاقات الهائلة التي تزخر بها الأرض فيعمر الصحاري ليزداد نعيما وانتشارا، ويرود الفضاء، ليضم برهان السماء لبرهان الأرض، فيعلم ما لم يكن يعلم، أو قل ليخفض الجبين لهذا الرب الجليل، عندما يقف على الحقيقة الكبرى التي تهديه سواء السبيل، فيصبح ينبوع رحمة على هذه الأرض،

لا مصدر قسوة وعذاب لأحيائها.

ولذا، سنعمد لضعاف المخلوقات، لنورد بعضها مثلا على هذا الإلهام الرباني، وهذه العناية الإلهية، ولنبدأ بهذه الحشرة البسيطة، التي تدب على الأرض، معرضة للسحق من دواب الأرض دون عمد أو عن قصد، ألا وهي النملة، التي يقرر العلم أنها وجدت على هذه الأرض قبل الإنسان بعشرات الملايين من السنين، ولها نظم اجتماعية رائعة، فهناك ملكة على رأس هذا المجتمع وعدد محدود من الذكور تقوم بعملية التناسل، وباقي أفراد القرية أو قل المملكة، تقوم بالأعمال المختلفة، فمنها ما يسعى لجمع القوت، ومنها ما يقوم بعمل الممرات وتشييد الأنفاق وأخرى تعد المخازن الواسعة لاستقبال المحصول، أو تقوم ببناء غرف فوقها غرف، كما نشاهد في العمارات الحديثة !! والأغرب من هذا أن هناك تخصصا، فلكل فئة أعمالها التي تجيدها، حتى الحارسات لها فرقها.

والتفاهم بين أفراد النمل واضح، فما أن تعجز نملة عن عمل ما كنقل حبة لا تقوى على حملها، أو قطعة غذاء لا تستطيع جرها، إلا وتركت المحاولة لتبحث عما يعينها من أخواتها، وما تمضي لحظات إلا وتلك الحبة أو المزقة في طريقها إلى مخازن القرية بين نملتين أو أكثر.

وأفراد القرية تعرف بعضها بعضا، فخذ نملة من قرية ما، واطرحها بين أفراد قرية أخرى، تلاحظ أنها تشعر بالوحشة والخوف فورا، وأن النمل يدرك حالا أنها غريبة، فيمسك بها، وقد يجرها لداخل القرية، أو يتركها وشأنها، إذا أظهرت خضوعا وذلة. تماما كما تفعل الحيوانات الأخرى عند اقتتالها، لكن النمل من أكثر المخلوقات عدوانية. ولذا، يندر أن تسلم نملة إن أوقعها سوء حظها بين جماعة غريبة، أمّا إن كانت تحمل شيئا، فالاستيلاء عليه أمر مؤكد.

ولإتمام برهان معرفة النمل لأفراد قريته، خذ نملة من نفس القرية وضعها وسط مجموعة من قريتها، بعيدة عن القرية، أثناء سعيها لجمع قوتها، تلاحظ تحرك المجموعة السريع نحو هذه التي سقطت بينها، وسرعان ما ترى قرون الاستشعار تتلاوح بين الجميع، وينتهي ذلك بمعاودة الكل للسعي، وانضمام تلك النملة للقافلة، بل ربما بدأت في مساعدة نملة منها عجزت عن حمل أو جر حبَّةٍ أو عود.

والأعمال التي تدل على العقل لدى النمل واضحة، فكم من مرة شاهدناه ينشر الحبوب التي خزنها، ليعرضها لحرارة الشمس بسبب رطوبة أصابتها، وخشي فسادها، فإذا جفت وأصلح مخازنها أعادها ثانية، والعجيب أنه إذا حدث تغير في الطقس وبدأت السحب تتجمع فإنه يعدل حالا عن مواصلة نشر حبوبه، ويبدأ في إدخالها بسرعة إلى مخازنها، ويندر أن يخطئ في تنبئه هذا، حتى أن العامة من كثرة تجربتهم وعهدهم به، يقولون: إذا بدأ النمل ينشر حبوبه، فسافر ولا تخش المطر. كما أنه يعتني بصغاره، فينقلها من مكان إلى مكان إذا نزل بها ما يوجب نقلها. مما يشير إلى اهتمامه الاجتماعي وعنايته بضعافه. وكم من مرة وقفنا على مجازر بين قريتين من قرى النمل، بسبب التقاء مسيرتين تبحثان عن الغذاء.

والنمل من شدة توقعه للعدوان عليه (لأنه ذو طبيعة عدوانية)، لا يخرج إلا في مسيرة طويلة تبلغ مئات الأمتار، وتراه فيها على شطرين شطر محمل ومتجه نحو القرية، وشطر أودع حمله المخازن وعاد ليحمل من جديد.

كما تلاحظ أن بعضه يبحث عن الحبوب على جانبي المسيرة، كأنه يريد أن يسعى في ظل حمايتها. وإذا اكتشف ما يوجب تشكيل أفرع من المسيرة، رأيتها قد تفرعت، ولكنها غالبا ما تصب في المسيرة الأساسية.

وطبيعي أن هذا التشكيل للقرية بهذا النظام الذي وزعت به الأعمال بالتخصص، وهذا التمييز للغرباء من الأقرباء، مما شكل معه وحدة تحمي مجتمعه، وتجمع غذاءه، لبرهان قاطع بأن هناك لغة ما يتفاهم بها، وإلا لما قام هذا المجتمع المتكامل، وقد تكون لغة صوتية، لا حركية بقرني الاستشعار وحسب، لأنك لو أمسكت بنملة، أو حبست إحداها في مكان ما، كطيات الثياب، فإنك تسمع صوتا فيه شيء من اللحن أو المقاطع الصوتية، كالصياح الذي تسمعه من العصافير وغيرها.

والأغرب من كل ما قلناه عن النمل، أنه من الذكاء بحيث استطاع أن يستأنس حشرة تدعى (المنّ)، تقيم في قريته، ويحلبها ليتغذى بذلك السائل الحلو اللذيذ الطعم، ويقول العلماء إنه توصل لاستئناسها قبل أن يستأنس الإنسان أي حيوان أو طير!!

أما عدوانية النمل وجرأته، فتختلف من فصيلة إلى فصيلة، فمنها ما تلاحظ فيها ميلا للسلم، ومنها ما تجد فيها كل عوامل الشر والعدوان، حتى أن بعضها لشدة عدوانيته وجرأته المتناهية، يفتح فاه ويرفع جسمه بصلف كله التحدي والتوثب، حتى ولو كان ذلك الذي قرب منه حيوانا قد يطأه دون أن يراه، وهذا النوع من النمل يغزو القرى الأخرى ويستولي على مخازنها، تماما كما يفعل شرار البشر في بني جلدتهم.

ألست معي بعد هذا الوصف الذي هو حصيلة دراسة علماء متخصصين، وتجارب طويلة لهم مع النمل، بأن ما جاء في القرآن الكريم؛ من إضفاء لهذه الصفات عليه هو تطابق مدهش للعلم مع القرآن الكريم الذي يقول الله تبارك وتعالى فيه: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ [النمل: ١٨].

ولا عجب فقد صنع الإنسان أجهزة إرسال تكون من الصغر بحيث تغرس بين أسنان الشخص دون علمه لتنقل همساته لمكان بعيد دون أن يدري !! فكيف بخالق الإنسان ؟ أتعجزه الوسيلة ليلهم النمل ؟؟!!

ومن يدري، فلعل العلم يتمكن عما قريب من تحديد المقاطع الصوتية لهذه الحشرة وتكبيرها بحيث تسمع بوضوح يتيح للعلماء تحليلها ومراقبة النمل في تجاوبه وتفاعله مع بعضه البعض بواسطتها وأثر ذلك في حياته التي تؤكد أن له أسلوبا ما للتفاهم أدى به إلى إقامة مجتمع منظم يقيم في مساكن تماثل مساكن البشر في دقتها، فهي طبقة تعلوها طبقة، ويدير حياته بنظام بديع.

ومثل آخر على الحشر الضئيل النحيل، الذي لا يكاد يشعر به أحد، وهو يمثل آيات الإلهام والإبداع التي خصه الله بها، فظهرت في أعماله الدقيقة وقدراته الخارقة، ألا وهي النحل، التي تعتبر من كرام الحشر، والتي تتجمع في وحدات تسمى الخلايا، ويقوم مجتمعها على النظام الدقيق، والتخصص في الأعمال المتنوعة، ملكة ولود، وذكور للتناسل، وعمال تبني الخلايا ذات الهندسة الرائعة، والمكونة من ثقوب سداسية الشكل، منتظمة التوزيع، وهي من مادة شمعية جمعت من البساتين والحقول، لتقوم الفئات الأخرى بجمع الرحيق من مختلف الأزهار، وتحويله عسلا تخزنه فيها، كما تحول الثدييات عناصر الغذاء الذي في جسمها إلى لبن.

ويمتاز النحل بحاسة الشم القوية جدا، فهو ينتجع البساتين المزهرة، على بعد خمسة أميال من خليته، ويجمع الرحيق من أزهارها، زهرة زهرة، وبالرغم من كثافة الأشجار التي قد يضل فيها بعض الناس طريقه، فإنه لا يضل طريقه إلى خليته.

ونظام النحل عجيب، فإنك تشاهد الأسراب غادية رائحة بين الأزهار والخلايا، فلا يخطئ سرب أو نحلة خليته ليدخل خلية مجاورة ولا

يعيق الداخل الخارج، وليس هناك إلا الدوي الذي يدل على الجد والمثابرة والنشاط، وكل فئة تعرف واجبها، حتى الحراس على أبواب خلاياها لا تحيد عن حراستها.

ومن القدرات الخارقة علاوة على ما ذكر، فإن للنحل القدرة على تحضير غذاء خاص للملكة، لا يتناوله أحد سواها، إلا خطأ أو عن غفلة، وهذا الغذاء، احتار علماء البشر فيه، فهو سائل لبني كالعسل، تتناوله الملكة فيهبها القدرة على وضع بيض يعادل وزن جسمها مرات ومرات، ويطيل في عمرها لسبع سنوات أو أكثر، والغريب من أمر هذا الغذاء، أن الشيخ المتهاوي، لو أعطي منه جرعات يومية، والجرعة بقدر رأس عود الثقاب، لعاوده نشاطه، وعادت إليه نضارة الشباب.

وهذا السائل أثمن من الذهب وزنا بوزن ومع عجز علمائنا عن تصنيع ما يشابهه، بالرغم من تقدم العلم، فإن النحل بكل بساطة يمكنه ذلك، ولولا أن تناوله يغير نمو جسمه، بحيث يخرجه عن التناسب مع أعماله، لهيأ لنفسه ما يكفيه من هذا الغذاء، لكن وراء ذلك مشيئة كبرى رسمت الحدود، وألزمت كلاًّ بحده، فلا يحيد عنه قصورا أو تجاوزا.

وإن كان القرآن الكريم قد قرر أن للنمل مساكن، ومجتمعا ينادي فيه، فيسمع صوت النذير، ويستجاب له بدخول المساكن، فإن الله سبحانه وتعالى لعلمه ما للنحل من ميزات فقد كرمه بالوحي إليه. إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٦٨، ٦٩].

قلنا: إن للنمل صفات تدل على العقل، وأنه يسعى لجمع قوته

ويعود لقريته، لكن سعيه وعودته لقريته يكاد يكون على طريق رسمته الجماعة بأجسامها الدائمة التواجد عليه، وللرائحة الخاصة التي تتخلف منها مما لا تضل معه الطريق.

لكن النحلة التي تطير منفردة ولخمسة أميال عن خليتها، وتغرق وسط أشجار كثة متشابكة، قد تبلغ عدة كيلو مترات مربعة، وتمضي بعض الوقت حائمة بين أزهارها، حيث تتركها عند استيفاء حملها دون انتظار لغيرها، وتطير إلى خليتها، فلا تضل الطريق مع كثرة الأشجار والبنيان أحيانا، ولا تزل عن خليتها مع تشابك الخلايا في مزارع النحل!!!

فهل يصدر هذا عن عفوية؟ ! أم عن عقل قادر على أن يدل بصاحبه كأحسن ما تدل به العقول؟ وإن كان ضمن دائرة رسمها له وهاب العقول ومقدرها.

إن هذه الحشرة ذات العقل الذي تنطق به أعمالها وقدراتها، ونظافة مرعاها، بل امتيازه عن المراعي الأخرى وهذا الجنى الكريم الذي تجنيه، وهذا النظام والانضباط والمثابرة والسعي الدؤوب، ليجعلها أهلا لأن يكرمها الله بالوحي الملهم، لتأخذ هذه المكانة الرفيعة بين الحشر.

وإذا أردنا الاسترسال في ذكر مجتمعات مخلوقاته، وشرح ما تقوم به من أعمال، فإننا سنخرج عن الهدف الذي نسعى لبيانه، ويصبح الغرض متعلقا بهذه المخلوقات، مع أن جل همنا أن نشير للقارئ الكريم إلى عظمة وقدرة الخالق العظيم التي يرمز لها جليل أعمال مخلوقاته المتطايرة كالرذاذ، أو المبعثرة تحمل الحب وهي أصغر من الحب، ليتضح لنا أن هذه الأجسام اللطيفة الضئيلة، لا يمكن أن يتسنى لها مثل هذه الأعمال وهذه القدرات المليئة بالإبداع، لو لم يكن البديع العليم قد أودع فيها ذلك، وزودها به مما يلفت النظر على أن المسألة مسألة عطاء قدرات محددة من رب القدرة

الغلابة، التي لا تحد ولا يحاط بها، ولو لم يكن الأمر كذلك، لما قامت النحلة والنملة بهذه الأعمال، ولما شكلت مجتمعاتها القائمة على التعاون والنظام الدقيق.

وما قلناه عن النمل والنحل يمكن اعتباره مثلا على بقية الحيوانات، وإن كان هناك ما هو أدنى منها سلوكا، وما هو أعلى، كل حسب رتبته الحيوانية.

فمثلا، هناك بعض العصافير التي تنتقي مواقع أعشاشها في الأماكن المختارة من الشجر، فتجدل جديلة تقارب الذراع، ثم تبني عشها في طرفها الأسفل، على هيئة سلة مدلاة في الهواء، خشية الهوام والجوارح، وبقية الأعداء، مما يؤكد أنها تحوطت عندما فكرت في بناء أعشاشها بالإضافة لإتقانها المتناهي لبنائها بحيث لا يختلف شكل عش عن شكل عش آخر للفصيلة الواحدة، مهما تباعدت الديار بينها، لدرجة أن سكان المنطقة يعرفون نوع الطير من شكل عشه.

ومن الطير ما لا تخونه الذاكرة مهما طال الزمن، كالببغاوات التي قيل: إنها لا تنسى أصحابها مدى حياتها.

وقد ذكر أن ببغاء عرفت صاحبها حالما نزل من سيارته على الحدود المصرية الليبية ونادته: مرسيي! مرسيي! بعد فراق سبع عشرة سنة !!!

وهناك الأفيال التي تقوم بالأعمال الجبارة والدقيقة في نفس الوقت حتى أنها تختبر ما تحمله عند وضعه على الأرض، فإذا وجدته غير ثابت، ثبتته بحصاة أو ما شابه ذلك.

وهناك الكلاب بشتى أنواعها، فمنها ما تقوم بأعمال المراقبة والحراسة، واقتفاء الآثار ومساعدة رجال الأمن على اكتشاف المجرمين.

وكل ما ذكرناه، يأتي دون القردة رتبة ومهارة. إذ أنها تعد أرقى

العجماوات، ويمكن تدريبها على أعمال تحتاج إلى مهارة وقدرات عالية.

وليس ما ذكرناه هو أعظم الصفات وأندرها لحيوانات اليابسة، فهناك طائر يدعى (صياد فراشة العتة) الذي يكتشفها في الظلام بالذبذبات التي يرسلها، وعندما يندفع نحوها ليصيدها، تكون قد غيرت مكانها قبل أن ترتد إليه ذبذباته بعد اصطدامها بجسم الفراشة، لأن جهاز سمع الفراشة أسرع ترددا من جهازه!!

وإن كان هذا وصف بعض حيوان اليابسة، فإن للبحر حيواناته التي تتصف بالمدهشات، وتبعث على العجب، فمنها ما لا يسمع ولا يرى، ومع هذا، يشعر الذكر منها بوجود أنثاه، وهي على بعد عدة أميال عنه لأن الأنثى وقت الإخصاب تبعث بذبذبات ونبضات كالنبضات الإلكترونية، فيلتقطها الذكر، ويتجه نحوها، بدلالة تلك النبضات، كما نستدل في ليلة حالكة الظلام على آلة بهدي صوت محركها، أو كما نتجه ليلا نحو بيت في الصحراء، مسترشدين ببصيص الضوء الذي ينبعث منه: (وليكن هذا الموضوع الثابت علميا خير مثل يؤكد لنا أن للنمل أسلوبا مماثلا أو مغايرا للتفاهم).

وفي البحر أنواع من الحيوانات، تكاد ألا تميزها من النبات، كالشعب المرجانية، كما أن فيه أنواعا راقية، كالحوت الذي يعيش جماعات لها نظم حياتها، وله من التصرفات ما يدل على العقل ونضج العاطفة. إذ أنه ينقذ الغرقى ويوصلهم إلى الشاطئ ثم يعود مما حدا بكثير من الدول إلى تحريم صيده أو التعرض له.

إن هذه القدرات والمهارات التي تتمتع بها هذه الحيوانات لم تكن وليدة علم اكتسب. فالنحلة لم تتعلم فن بناء خليتها، ولا أم العصفور علمته كيف يجدل عشه على هيئة سلة معلقة في الهواء. وإذا فرضنا جدلا أن

هذه المخلوقات وجدت من يعلمها ويدربها، فمن درب فرخ الدجاج على صوت النذير من أمه، قبل أن يفقس؟ بحيث لو وضع البيض على مسطح من زجاج قبل فقسه بيوم وسمع إنذارا من الدجاج، تدحرج البيض؟ ومن علم النبات هذا التفنن العجيب في توزيع بذوره في أنحاء المعمورة؟؟؟ قذفا وطيرانا وتعلقا!! وجعل بعضه يرتب بذوره كل ثلاث في غلاف يمنعها من أن تنبت دفعة واحدة بل بالتوالي بمعدل بذرة واحدة كل سنة [(١)]!!!

إنه العلم الملهم والمهارة المعطاة من الوهاب الأعظم الذي لم يهمل شيئا خلقه. بل كفل له أسباب الحياة والسلامة.

والله سبحانه وتعالى يتولى أمر مخلوقاته بعلم لا يدانى، فهذه غريزة الجوع، ألزمت كل ذي كبد حي أن يركض برجليه، أو يطير بجناحيه، أو يزحف على بطنه، أو يعوم في الماء، سعيا وراء ما يقيم أوده، ويبقي على حياته، ثم تكفل ببقاء نوعه بإيداع غريزة الجنس فيه، ليميل الذكر والأنثى لبعضهما، فيتم التزاوج بينهما فتنشأ أجيال جديدة من جنسهما، لتأخذ دورها في الحياة، فيزداد ذلك الجنس نماء وتفرعا.

وكي يضمن للمواليد الرعاية حتى تستقل بسعيها وتعتمد على نفسها، فتلحق بركب الحياة، أودع قلوب الأمهات عاطفة الحب الخالص المتفاني في سبيل مواليدها، وإذا دخل في روع أحد أن هذه العاطفة مردها حرص الأم على منفعتها، التي ستجنيها من وليدها عندما يشب، نقول: إن كانت الأم الآدمية محل مظنة في هذا، فمن أين للعجماوات إدراك مستقبل مصالحها، على يد فراخها وخرافها وعجولها؟؟؟

إن هذه العاطفة طبيعية وخالية من الغرض، ولو لم تكن كذلك، لما

---

(١) هذا النبات يسمى في فلسطين ضريس، لأنه يشبه الضرس وهو من الأعشاب ذات الثمر الشوكي الخشبي.

قامت العصفورة بالهجوم على القط، ورمي نفسها عليه دون فراخها، وهي الضعيفة التي تموت فرقا عند رؤيته، لكن عاطفة الأمومة الصادقة أعمتها عن مصيرها. وهو الهلاك المحقق في سبيل إنقاذ فراخها من الفناء، وهي العاطفة نفسها التي تجعل الفرس وهي البهيمة الخرساء، ترفع قدمها في الليلة الظلماء وتضعها بتؤدة وتحسس، خشية أن تطأ مهرها، وهي التي تجعل الناقة تمضي ليلها ونهارها بنُواح يهز المشاعر عند عزل وليدها عنها.

ما معنى هذه الوحدة في الغرائز التي ذكرنا؟ والتي لم نذكر، كالنوم الذي يغشى الجميع، والخوف الذي يحل بالقلوب عندما تهدد حياة الحيوان، فيدافع عن نفسه، أو يراوغ أو يهرب أو يذل ويستسلم!

معناه أن وراء ذلك خالقا لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنه لم يهمل من أمر مخلوقاته شيئا، فهدى كُلاًّ طريقه وأودع فيه من الغرائز التي تحفزه على مواكبة ركب الحياة، وقيض له أسباب عيشه لتستمر فيه شعلة الحياة، ووسائل أمنه صيانة لهذه الحياة. فجاءت كلها شهود حق على أنه متفرد في صفاته..... فهو المنشئ والمدبر بعلم مبدع، والرقيب بعلم محيط. والراعي لخلقه، بفيض رحمته التي وسعت كل شيء.

وهكذا بقية صفاته الجليلة، كالقدرة والحكمة والحلم والعفو والمغفرة... هي صفات لا تتسع لها لغتنا إلا مجازا! ولا تتصورها مداركنا إلا بقدر طاقة عقولنا القاصرة عن الإحاطة بها لأن صفاته تبارك وتعالى أعظم وأجل من أن يدركها عقل، أو يرقى إليها خيال، وكل ما يقع تحت أبصارنا، أو تدركه عقولنا أو يصل إليه خيال سليم، هو بعض آثار علمه ورمز لصفاته، أما ذاته، فحاشاه أن يدرك بقوانا العقلية التي عهدناها تعجز عن تجاوز المحدود من المعرفة، فكيف بذاته، التي هي بخلاف ما يمر بفكر أو يخطر على بال. وحسبك أن جزءا من علمه لا كل علمه، يحيط بما في

الأرحام.

ولك أن تتصور أناثي الحشر والطير والبشر وحيوانات اليابسة وأسماك البحار جميعا، محملة أرحامها على اختلاف أجناسها وكثرة عددها، ومع ذلك فالله يعلم ما تحتويه تلك الأرحام عددا ونوعا، وما مصير تلك الذكور والإناث. أما كيف يكون له ذلك، فالجواب أعلى من مستوى إدراكنا، ومثلا على هذا نلفت نظر القارئ الكريم إلى ما يلي تقريبا للذهن:

هب أن جماعة من صفوة الناس عقلا وعلما وتجربة، من الأجيال التي طواها الدهر، بعثت من جديد في مكان ما عندنا، وأدخل في روعهم أنهم لا يزالون في حياتهم الأولى بكل ما فيها من علم وعرف وأسلوب حياة.

وتصور أن رجلا منا دخل عليهم في أحد نواديهم، وقد تزيًّا بزيهم وظهر بمظهرهم، بحيث لا ينكرون من أمره شيئا، وقال لهم: هل تعلمون أنني البارحة كنت أصغي لحديث شجي عن كيفية صيد الحوت، وما في ذلك من مخاطر؟ وكان محدثنا صيادا إنجليزيا في بريطانيا.

وبعد انتهائه أخذت أنصت لمحاضرة قيمة حول الطريقة المثلى لتربية الأبقار وتسمينها، كان يلقيها خبير زراعي في شيكاغو ؟؟ فطبيعيّ ما داموا لا يلمحون فيه أمارات الجنون والخبال، فسيقولون له: وكيف جمع الله الشتيتين، فالتقيت بهما في تلك الندوة الشيقة؟ فيصحح مفاهيمهم بأنه كان مستلقيا على فراشه يصغي للصياد وهو يقص قصته في أحد بيوت بريطانيا، في الجزيرة البريطانية.

وبعد ذلك استمع للزراعي الأمريكي وهو يلقي محاضرته تلك في مدينة شيكاغو في أعمق أعماق أمريكا.. وكل هذا وهو هنا في بيته ومستلق على فراشه.

لا شك أنهم جميعا سيتبادلون نظرات الاستهجان والاستغراب والإشفاق على محدثهم الذي لا جدال في أنه مصاب بلوثة ومس في عقله، لأن هذره وتخريفه هذا، ليقطع بذلك ويؤكده.

لكن الرجل عاقل كما نعلم، وواثق مما يقول، فيستغرب حالهم ويدهشه ما اعتراهم، فيناشدهم الإصغاء، ويقسم أنه صادق فيما رواه، وأنه سمع بأذنه قصة كل رجل من صاحبها مباشرة، بينما هو في بيته هنا، وكل منهما في بلده.

وأن ذلك حدث متعاقبا البارحة، لا يفصل بين حديثهما أكثر من ربع ساعة. ثم يقول: وليس هذا فحسب، بل إنه ما كان يفرغ المحاضر الأمريكي من محاضرته، وإذا بي وأنا كما أنا على فراشي، أرى القمر فأدقق فيه النظر، وإذا برجلين يمشيان عليه، وبعد برهة يلتقط أحدهما بعض الحجارة والآخر يحفر حفرة ويأخذ منها شيئا ما.

ولا غرابة إن سأله أحدهم بتهكم واستخفاف: وهل ضل القمر طريقه في السماء ؟ ليعتكف في سقف غرفتك لتشاهده وقد اعتلاه رجلان؟؟؟

فيقسم أنه شاهدهما كما ذكر، وقد كانا من الوضوح بحيث أنه كان يرى آثار أقدامهما على تربة القمر الناعمة.

فبالله عليك، هل سيصدقه واحد ممن يستمعون إليه ولو كانوا ألفا؟؟؟

وهل يشك واحد من الألف أن الرجل لا يعدو أحد أمرين: فاقد لعقله، أو كاذب يستملح الكذب ولا يستحيي منه؟

إن هذا المثل الذي هو من واقع حياتنا، والذي هو بديهي بوجود الراديو والتليفزيون والأجهزة الإلكترونية المتقدمة، ليقطع بأن للعقل

البشري قدرة محدودة في إدراك الحقائق.

وما دام ذلك واضحا بأنه قد عجز عن فهم وإقرار أثر من آثار علم أحفاده الناشئ، وما صنعته أيديهم، فحري به أن يكون قاصرا عن إدراك علم وقدرة من صنع أحفاده وآن له أن ينحني للعالم الكبير، ويقلع عن غروره وزعمه، بأن عقله هو المقياس الأوحد الذي تقاس به الحقائق، فما عقله منها أقره، وما عجز عن إدراكه منها، فهو هراء وافتراء !! لأن الحقيقة هي الحقيقة، وإنكار العمي لها لا ينفيها، بل ينفي نور أبصارهم.

ولنعد لسؤالنا، كيف تكون له القدرة على علم ما في الأرحام الذي جئنا بهذا المثل من أجله، لنذلل أن ليس في قدرتنا إدراك كل الحقائق العلمية فنقول: يكون له ذلك، لأن العلم بالشيء أسهل من خلقه، فمن يخلق، أهل لأن يعلم ما خلق، فما بالك برب القدرة القادرة على إنشاء هذا الكون، الذي ألمحنا إليه، وملأه بمختلف الموجودات، وتولى الجميع برعاية وعناية، كلها العلم والحكمة، لا انفعال فيها ولا عفوية، وقد وقفنا في الصفحات السابقة على بعض آيات ذلك، مما لا يبقي مجالا للشك بأنه إله واحد، عالم قادر، بديع، خبير بما أوجد، ورحيم بما خلق.

ولنكتف بما تصفحناه من هذا الكون المليء بالمشاهد والملموس، الذي يستعين به كل ذي بصيرة ليستوضح طريقه إلى الله، ويستقرئ مما أمامه عظمة من أوجد ما أمامه، وما أمامه يشكل سفرا عظيما من وسائل الإيضاح، للراغبين في البحث عن الحقيقة الكبرى، ألا وهي معرفة ربهم الذي رباهم بفيض إلهامه، ووفرة نعمه الظاهرة والباطنة، فأصبحوا يعلمون ما لم يكونوا يعلمون.

ولفرط كرمه يرفلون في خيراته، دون الإحساس بأنه صاحب المنة عليهم، وولي ما هم فيه من نعيم مقيم !! فصاروا يتبارون في التنكر

لربوبيته، وفضله عليهم. وأخذوا ينسبون كل شيء إليهم، أو لغيره ظلما وعدوانا، حتى أن من يقر بفضله، فيقوم بشكره يعتبرونه درويشا لا يعرف الواقع، لغلوه في الغيبيات والخيال العقيم!!

لكنه الكبير المتعال، الذي إن أنكره عباده ربا لهم، فلن ينكرهم عبيدا له، فكتب على نفسه الرحمة، ليقابل جحود عباده، بالجود على عباده، لأنه تبارك وتعالى، منزه عن صفات المخلوقات المحدودة القدرة، المشوبة بالضعف الظاهر، البعيدة عن الكمال، المنفرد به الله جل جلاله.

أما وقد فرغنا من إلقاء نظرة عابرة، على بعض براهين وحدانيته المنظورة في هذا الكون البديع، تاركين للقارئ الاستزادة بقدر ما تشاء له قدرته وظروفه، فإننا ندعوه لنلقي نظرة على بعض براهين وحدانيته، المنثورة آيات بينات في الكتاب الكريم، فتتضح لنا الطريق إلى الله، بدلالة آيات كونه وآيات كتابه المقامة منارات على شقي طريقه المستقيم، بحيث لا يضل معها راغب في السلوك على هذا الطريق.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ
حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ
عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٥٣ أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن
لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ﴾ [فصلت :
٥٣ ، ٥٤].

القرآن الكريم

تمهيد :

ما أن أخذت البشرية في تجاوز مرحلة الطفولة، إلا وكانت هذه الأمة أسبقها للرشد، فأقامت حضارات وطيدة الأركان في أرجاء الجزيرة العربية، وعلى امتدادها في الهلال الخصيب، وعلى طول الساحل الشرقي والجنوبي للبحر الأبيض المتوسط.

وإن كانت تلك الحضارات تسمى بأسماء مختلفة، فهي فرع من أصل، هو هذه الأمة العظيمة، التي كانت —ونرجو أن تكون— مركز إشعاع للفكر والعلم والهدى، على يد كرام الرسل والمصلحين من بنيها.

هذه الأمة التي ما أن ترزأ فيما تقيم من هيكل حضاري زاهر — بسبب ترف يمهد لقهر فشتات — إلا وانقلبت مسيرة قهرها الاجتماعي. فبدلا من أن تنجذب القبائل المنتشرة في طول البلاد وعرضها إلى مناطق الخصب التي تملك أمتها ناصيتها، تأخذ الصحاري وشبه الصحاري في استقبال أحفادها الذين هجروا الحواضر للبوادي لتأخذهم بما أخذت به آباءهم من حزم في التربية، وشظف في العيش كي يفارقهم ما اعتراهم من رجس الرخاوة وإفك الخور لانغماسهم في تخم الترف وبطنته.

وطبيعيّ أن تأخذ المنطقة في الاحتقان البشري المبتلى بالحصار وقسوة الطبيعة التي تأخذهم بشدة ما عهدوها، عقابا لهم على تفريطهم فيما ورثوه عن الآباء والأجداد من مجد عزيز المنال.

ولا مجال لبديل في مثل أحوالهم تلك، إلا الانتماء القبلي. ليحفظ كلٌّ كيانه في هذا المجتمع الذي تأخذ قبائله في التفاعل سلبا وإيجابا، وتدخل في محاورات ثمرتها العداء، فالتطاحن حتى العظم، أو الصفاء الذي يؤدي لحلف وثِيق العرى يفضي بهم لمصاهرة فانصهار تتمخض عنه وحدة ونماء ومنعة.

وهكذا يبقى ذلك المجتمع في مده وجزره حتى يذهب غثاؤه ويبقى ما ينفع أمته.

يومها تدركهم مشيئة الله العادلة، برحمة تجمعهم في وحدة لا انفصام لها، وتضعهم على طريق جادة بدلا من الشتات والتسفل.

وقد كان لهم ذلك، منة من الله وفضلا، فجاءهم جوهر الهدى ونقي البر على يد أكرم رسول ليهديهم ويهدي بهم.

فأصبحت تلك القبائل أمة، بل خير أمة بعد أن ذهب تطاحنها بريحها وقصم شوكتها، فهانت وسهل اجتياحها، لولا العاصم الطبيعي آنذاك، وهو صحراؤهم المترامية الأطراف الخطرة الولوج.

ولا عجب فكل متتبع لتأريخ هذا الشعب، يجد أنه ما قيض الله له من يجمع شمله، ويوحد كلمته، ويحدد له هدفا يؤمن به إلا وبرز شعوب زمانه علما وحضارة، وكانت ولايته كلها العدل والإخاء.

وسيجد الباحثون أنه لم يحدث في كل تأريخ العرب حدث يضاهي أثره الأثر الحميد الذي أحدثه القرآن فيهم. فقد جمعهم على كلمة سواء. هي الحق والتقوى والإخاء الصادق، حتى أصبحوا في توادهم وتراحمهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى. فكانوا حقا خير أمة أخرجت للناس، وبنوا في ظل الشريعة الغراء دولة عظمى، تفيأت أمم عدة ظلالها، فنعمت بالأمن والعدل والرخاء، ونقلت عنهم علوما نقلتها من التخلف إلى ما نراها عليه اليوم من حضارة زاهرة، للعرب وإخوتهم في الله دور فيها لا يجحده إلا كل مغرض لا ضمير له.

فكتاب كهذا، لا تضل أمة ولا تذل إن اتخذته لها دليلا، فجدير بعناية كل من ينشد الخير لنفسه ولأمته، لأنه كتاب تنطق آياته الكريمة بالإعجاز ليرتفع به عن مستوى البشر، فيسلم من شبهة قولهم، كي يقتنع الناس أنه

رسالة ربهم إليهم، فيستجيبوا لداعي الله.

وسأعرض لشيء من إعجاز هذا الكتاب العظيم، مدللا بالمنطق السليم، والبرهان القاطع أنه تنزيل من رب رحيم.

إعجاز معناه: نزلت الآية الكريمة الآتية يوم شكك المغرضون من العرب في القرآن وقالوا: إن محمدًا يتقوله نقلا عن غيره، فقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

قول كما ترى فيه التحدي لأولئك الذين ملأت الجهالة قلوبهم صلفا وكبرياء، وشط الضلال بأفكارهم، مما جلب على مجتمعهم التفسخ، والتناحر والاقتتال القبلي، لأتفه الأسباب، حتى أن الغارات التي كانت تزهق الأرواح وتنهب الأموال وتسبي الأعراض فيها، كان يتغنى بها، وتؤرخ القبيلة بها تفاخرا وتخليدا لقهرهم الآخرين، ليكون ذلك حافزا لذراريهم للأخذ بجانب التربص والتوثب، لا مدعاة للأخذ بجانب الحق والذود عنه، بل تشيعا لذوي قرباهم ولو كانوا ظالمين. مما جعل العدوانية تتغلغل في نفوسهم. فجاءت بنات أفكارهم متناسبة وأسلوب حياتهم. فتحجرت قلوبهم، وسفهت أحلامهم. فأصبح الحق غريبا في ديارهم، والجور عميدا لهم! حتى أنهم لما أذلهم السبي وألحق العار بهم، لم تتفتق أذهانهم عن وسيلة تدرأ عنهم ذلك، إلا وأد بناتهم !! فأصبح الواحد منهم يدفن طفلته الضعيفة حية تغص بالتراب بين يديه اللتين تهيلان عليها التراب !! وولولة المسكينة وعويلها يقطعان نياط القلوب، وهو كأنه لا يسمع ولا يرى ما يلحقه بابنته من القهر والغدر، بأبسط حقوقها عليه !!

ولما جاء القرآن الكريم ليزيل ما اعترى قلوبهم من باطل أعماهم

ويغرس بدلا منه الحق أساسا لكل فضيلة، ليكونوا خير الناس فيما أضمروا أو قالوا أو فعلوا، جعلوا أصابعهم في آذانهم وخروا عليه صما وعميانا، ناعتين رسول الله بأنه معلّم مجنون !!

ولما كانت اللغة هي وسيلة التعبير عن مكنون الضمير، كان طبيعيا أن يأتي قول هؤلاء فجا غليظا ومجافيا للحق الذي لم يدرجوا على أبسط قواعده حتى بالنسبة لفلذات أكبادهم. وبديهي أن ضمائرهم الخالية الوفاض من هذه المثل، لا يمكن لألسنتهم أن تنتزع منها قولا يضاهي ما جاء به القرآن من قول كريم.

ولهذا تحداهم الله أن يأتوا بسورة من مثله. تماما كما يتحدى عالم مبرز في علم الذرة، أميا لم يفارق الصحراء، أن يشرح له كل ما يتعلق بصناعة الذرة، فهل يستطيع من لم يسمع بالذرة أن يتفوه بعبارة علمية عن هذا العلم الواسع؟

وهكذا حال أولئك القوم فقد ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون فأصبحوا لا يستطيعون أن يأتوا بقول يحق الحق ويزهق الباطل، كما فعل القرآن العظيم، لأن للقرآن روحه الربانية الهادفة للحق وخير البشرية، وما بين أضلعهم ضلال بعيد، يؤكد عجزهم عن التحدي، والتصدي للقول الكريم الذي نزل رحمة بهم، ليفك أسرهم من أغلال الجهل الذي دمر مجتمعاتهم إطارا ومحتوى.

هذا مثال على الشطر المعنوي المعجز في القرآن الكريم، المليء بشواهد الإعجاز العديدة التي يؤيدها العلم الحديث، ويشهد بها علماء اللغة العربية وسادة بيانها.

ولنلبس الإعجاز المعنوي قشيب ثوبه البلاغي، فلا بد من التطرق لشيء من بلاغة القرآن، واختياره لأنسب الكلمات وأدق العبارات لما أراده

من معان بحيث جاء معجزا أيضا في الانتقاء والأسلوب.

والسر في إعجازه اللغوي هذا، مرده إلى أننا معشر البشر، إما نملك من المفردات اللغوية ما يعيننا على التعبير عن مشاعرنا وأفكارنا، تعبيرا فيه الدقة والخصوبة، أو أن لغتنا لا تتسع لمثل هذا. مما نضطر معه للتعبير عن معان شتى بكلمة واحدة.

ولا شك أن هذا عجز لغوي، إما في اللغة ذاتها، أو في حصيلتنا منها، ومهما يكن الأمر، فإن هناك سببا آخر، هو السر في عجزنا جميعا، المقل في حصيلته اللغوية، والغني بها، وهو أننا إذا أردنا أن نعبر عن معنى، يلزمنا انتقاء أنسب الكلمات وأدقها.. بحيث يفهم السامع ما نريد فهما محددا، وهذا الأمر يتطلب تداعي المفردات جميعا وفي آن واحد، وأن تكون لنا القدرة على انتقاء أنسب المترادفات منها للتعبير عن هذا المعنى دون سواه.

ومن أين للإنسان القدرة على استحضار هذه المفردات، بحيث تقف كأنها مفاتيح أقفال يختار لكل قفل ما يناسبه ؟؟؟

فهذا العجز البشري، هو الذي أجاز لنا أن نستعمل المترادفات، مع أنها كلمات ذوات مدلولات متقاربة المعاني لا متماثلتها.

وقد سلم القرآن من هذا، لأن قائله عز وعلا يعلم الشاردة والواردة من مفردات لغتنا، وهي جميعا، شاخصة أمامه، فلا يحتاج (تنزه اسمه) إلى بحث وإعمال فكر.

وهذه إحاطة لا يحيط بمثلها بشر، لتجيء الكلمة مفصلة تفصيلا لما تعبر عنه بدقة وشمول، حيث إنك لا تستطيع استبدال غيرها بها دون تخفيض لروعتها، وإخلال بدقتها ومسخ لجمالها.

ومثال على ذلك، نجد كلمة ﴿دَحَىٰهَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾، نجدها هي الكلمة الوحيدة التي تعبر عن حقيقة

الأرض اتساعا وبسطة، كما يشاهدها الإنسان يوم نزل القرآن... وهي هي الموفية للمعنى يوم زادت معرفتنا بالأرض وعلمنا أنها كره.

فهذه الكلمة، علاوة على تعبيرها عن دقة انتقاء الكلمات لمعانيها، فإنها من الإعجاز العلمي للقرآن. لأنها كما قلنا، تحمل معنى الاتساع والانبساط والعظم والاستدارة، فجاءت مطابقة لما تتصف به الأرض على اختلاف العصور. وتقدم البشرية في اكتشاف ما حولها. مما ترى معه أنه يصعب علينا استبدال كلمة مكانها لتجزئ ما أجزأته.

أما إذا عجزت لغتنا عن حمل معنى من معاني القرآن لنا، فإنه يعمد إلى نمط ذي نغمة موسيقية متناسقة الإيقاع والجرس، تأخذك روعته عند سماعه، وتلاوته في هذا الإيقاع، الذي جعل منه سبيكة كلها إلهام يغمر المرء بفيض روحي يبعث على الإجلال والتوقير، فتتم له الشهادة بأنه معجز في مبناه اللغوي كما هو معجز في معناه المتسامي الذي لا يتأتى لفكر أن يثمر شيئا يدانيه، مما جعله فريد الإطار والمحتوى، أصيل النسبة إلى الله، منزها عن أن يتقوله بشر.

قوة حججه سر هيمنته:

نزل كتاب الله قوي الحجة ناطقا بالحق في أبلغ أسلوب وأعجزه، لدقة اختيار مفرداته لجليل معانيه المراد بيانها وسبكها في عبارات غاية في البلاغة، وروعة البيان المتميز بإيقاعه وجرسه الخاص به، مما جعل له نغمته التي تشد المرء إليه وتملك عليه لبه، وتغمره بنفحات تجلو بصيرته ليستشف الأسباب التي جعلت هذا الكتاب كامل المبنى، عميق المعنى، ورفيع الأسلوب، فعالا بالنفوس التي رزقت حظا من الاستعداد لتذوق جليل المعاني والتأثر بها والتفاعل معها، الأمر الذي يحتم على أهل القرآن أن يتزودوا من اللغة العربية بما يتيح لها تذوقه التذوق السليم، ويعينهم على تفهم معانيه وإدراك

مراميه، ليقفوا على الغاية التي من أجلها قد نزل، لأن إجادة اللغة العربية توضح لنا طلاوة القرآن وحلاوته، وإعجازه، وهي وسيلتنا للغوص في بحور معانيه العميقة على أمل أن نصل لبعض حقائقه، والّتي منها حقائق علمية لا يكشف عن بعضها إلا تقدم العلم كما سيأتي بيانه.

وتحقيقا لهذا، فإن أول كلمة من القرآن شرفت سمع الرسول ﷺ هي {اقرأ} ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾ [العلق: ١ - ٥].

والقراءة جديرة بهذا التقديم، لأنها أعظم وسيلة للإنسان لعلم ما لم يعلم، فكما أن صحته وعافيته لا تكتملان إلا بالحياة الموزونة غذاء ومناخا وفكرا ومسلكا.

فكذلك معرفته وحكمته لا تزدادان نضجا ورسوخا إلا إذا كان غذاء أفكاره ثمرات أفكار المجيدين من ذوي الفضل، وخلاصة تجاربهم المتجددة مع الزمن، ونحن أحرى بهذا، لنواكب أمم زماننا، ولندرك مرامي كتابنا الكريم، الذي ما كان ليهيمن على مشاعر فصحاء العرب ودهاتهم الذين ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، لو لم يكونوا على دراية باللغة العربية التي نزل بها، ولما أذعنوا له هذا الإذعان، الذي أنطقهم بالحق شهادة يشهدون بها على ملأ من قومهم، بأنه قول كريم. ثم غلبت عليهم شقوتهم، فجانبوا اتباع هديه مكابرة وعنادا، وانقيادا لهوى النفس، وصلف الجاهلية، ومداراة لقومهم، إبقاء على مكانتهم، كالوليد بن المغيرة المخزومي، الذي هو من أرباب الفصاحة الذين يحتكم إليهم خطباء العرب وشعراؤهم، فإنه قد سمع مرة رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠].

فلما رجع إلى قريش قال: «والله لقد سمعت آنفا من محمد كلاما، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن! إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى».

فمن أين للوليد أن يقف على هذا الوصف لهذه الآية الكريمة، لولا ضلاعته في اللغة؟ هذه الضلاعة التي أتاحت له الوقوف على الحق. لكنه بدلا من اتباعه، رأى حججه الدامغة وبيانه الوضاء، خطرا على مكانته المقامة على الباطل، وزيف جاهه المشيد على أسس مجافية للعدل الذي ينشده رسول الله. مما جعله على رأس الكائدين له والمغررين بالناس خشية اتباعه.

ونوع آخر ممن وقفوا على ما وقف عليه الوليد بن المغيرة، لكنه لم يدبر استكبارا كما فعل الوليد، بل أجاب داعي الله عندما عقل كلماته. ألا وهو سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ، الذي كانت كبرياء الجاهلية توحي إليه أن يقول: «دعوني أقتل يتيم أبي طالب لئلا تتفرق كلمة قريش بسببه»، كما كانت كبرياؤه تحول بينه وبين سماع آيات الله. فكان دائم التخفيض لمنزلة الرسول لدى مجتمعه، حتى أنه كان يدعوه بيتيم أبي طالب، وهو صلوات الله عليه رجل قد تجاوز الأربعين سنة !!! يقولها إهانة له وتهاونا به، وتنفيسا عن الحقد الضارب في تيه الجاهلية، بالرغم من شفافية روحه وفحولته وعلو همته.... حتى أنه ﷺ عندما علم بإسلام أخته وزوجها، توجه إليهما لينتقم منهما، لكنه ما أن سمع منهما بعد ثورته عليهما بضع آيات حتى كانت بمثابة النور الذي بدد ظلام قلبه والبلسم الذي أعاد له صوابه، وأراه الطريق الذي يسلكه الشرفاء فسلكه توا إلى رسول الله يبايعه علنا ويشهر إسلامه، ولم يهاجر خفية كما فعل غيره.. بل هاجر جهارا قائلا: من أراد أن تثكله أمه، فليلقني خلف ذاك الوادي.

وهكذا فما أن تلين كبرياء جهالتهم، بما يسمح لهم بسماع كلمات الله، إلا وتتداعى قلوبهم لنور الحق وبيانه، فمنهم من تزول جفوته للرسالة والرسول، فيصبح من حماة الإسلام ودعامة كيانه، وأصدق الناس ذودا عنه، وإخلاصا ومودة لمن جاء به، كما فعل عمر بن الخطاب ﷺ، ومنهم من يختار الضلالة على الهدى، وهو يعلم أنها الضلالة التي لا يقره عليها عقله، ولكن يشده إليها هواه، تماما كمدمن أوضح له طبيبه ما يتهدده من خطر إن بقي يعاقر ما أدمن عليه. وبعد أن عقل ذلك وأدركه، شدته نفسه للمرتع العطن، والمشرب الوخيم، وفضل حفر الإدمان المهلكة على قمم العافية والانعتاق من الهاوية التي يتردى فيها كما فعل الوليد.

ولا غرابة في سيطرة القرآن على مسامعهم، لأنه نزل بلغتهم، وهم أدرك الناس لما ترمى إليه كلماته وعميق معانيه، وأقدرهم على الوقوف على ما فصل من آياته، وما استبطن منها، فيلمحون سنا بيانها من خلال عباراته التي ترد مجازا غاية في الروعة، أو إيجازا يمدك برفد لا نضب من جليل المعاني، إن أردت إطنابا.

حتى أن أكثم بن صيفي، شيخ قبيلة تميم، المتربع على عرش الأدب والحكمة، في زمانه، بعث بابنه حبيش ليقف على أمر محمد، ولما عاد ابنه جمع له تميما ليقص عليهم قصته.. فأخبرهم بما يدعو إليه محمد، فأقر ذوو الفكر منهم، أن الفضل فيما يدعو له، وسديد الرأي يكمن في ترك ما نهى عنه، وأوجز أكثم قرار قبيلته بكلمته المشهورة: «إن الذي جاء به محمد لو لم يكن دينا لكان في أخلاق الناس حسنا».

وبقيت تميم تتوخى ما نقله لها حبيش، وتسترشد بالكلمات الجليلة التي حملها لهم على قلتها، حتى جاءتهم رسل السلام دعاة الإسلام، فاتخذوه عقيدة عقدت لهم لواء المنعة والعزة بين القبائل.

هؤلاء الثلاثة مثل على ما أسرهم القرآن بحججه وبيانه، وفعل بهم ما فعل، وهناك ثلاثة آخرون، مثل آخر لنمط آخر من الناس الذين وقفوا على الحقيقة، قولا يتلى عليهم من الرسول الكريم، وعملا معبرا عن تخلقه صلوات الله عليه بأخلاق القرآن، مما جعل قلوب أصحابه لا تنبض إلا بهذه العقيدة السمحاء، فآثروا العذاب والموت على أن يشوبها أثر من أثار الردة، بعد أن اعتقلت ضمائرهم، فأصبحوا معاقلها التي لا تجتاحها عواتي القوى، فكانوا مثلا أعلى للثبات على العقيدة الحقة وأهلا لها.

فهذا بلال بن رباح ﷺ، مولى أمية بن خلف، أسلم فكان جزاؤه أن يجيعه مولاه ويعطشه، ويلقيه على ظهره في الرمضاء بإحدى بطاح مكة وبطاح مكة حرارتها تقارب الخمسين درجة مئوية صيفا، وريح السموم فيها تشوي الوجوه. ويضع أمية الصخرة على صدره ويقول له: لا تزال هكذا، حتى تكفر بمحمد، فيجيبه رضوان الله عليه: أحد.. أحد.. وبقي ثابتا على دينه حتى قيض الله له أبا بكر ﷺ فأعتقه. فلازم رسول الله طيلة حياته ﷺ.

واثنان آخران من أمثال بلال. ألا وهما عمار بن ياسر، ووالدته سمية رضي الله عنهما، وأثابهما ثواب الصابرين، فقد تجرعا ألوانا من العذاب لا تحتمل، فقضت سمية نحبها من شدة ما نزل بها منه ومن جراء طعنة طعنها بها سيدها بعد أن أعياه ثباتها، فلاقت ربها شهيدة صابرة متحسبة، وعمار أصبح حطاما طحنته أيدي العسف والجور الظالم، فأبى أن يأتي دون والدته وأخيه في الله بلال، ثباتا على دينه، فكانوا خير من أوفى بعهد، وأصلب من ضمت جوانحهم عقيدة، فكل معذبوهم وما وهنت عزيمتهم في سبيل الله.

وإذا علمت أنهم كانوا مماليك لم يطعموا يوما طعما لعزة، ولم ينشؤوا على كبرياء.. بل كانوا يربون تربية يتجرعون فيها الذلة والخضوع،

فما أن يصلب عودهم إلا واستساغوها، إذا علمت هذا، وثقت بأنهم صمدوا لا لأنفة غرست فيهم على يد أسيادهم، بل لما فعلته بهم عقيدة التوحيد التي ربطتهم بالله رباطا لا انفصام له، فصدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلا، لا لأنهم هواة آلام يتجرعونها، فقد رضعوها ونشئوا في حممها وضاقوا بها، فأصبحوا لا مزيد لاحتمال لديهم، لكنه الإيمان بالله الذي دفعهم لاستملاح الانضمام لقوافل الشهداء ثباتا على الحق غير مؤثرين على ذلك الجبن والذلة لينعموا بالسلامة، لأن الذلة والجبن وكل صفات الخنا، تنفر منها القلوب التي ملأها الإيمان. لأن الإيمان والعزة صنوان متلازمان تحقيقا على أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

هؤلاء يمثلون فئة آمنت بالله وتأست برسوله، فجاءوا المثل الأعلى لأمة محمد، التي درجت على ما رسموا لها من مستقيم الطرق وقويم الخلق.

من هذا نرى أن القرآن قد نزل شامخ البناء متين القواعد، زاخرا بالمعاني السامية، تفيض منه الحكمة ويشع منه نور الحق المبين، معجزا يتحدى فصحاء العرب، فلا يملكون إلا التسليم، كعمر وأكثم والوليد، الذين جئنا بهم مثلا على حال فئة من الناس، وكبلال وسمية وعمار، كمثال على حال فئة أخرى من الناس الذين واكبوا بدء الرسالة التي جعلت من قبائل العرب المتطاحنة خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف، بعد أن وصل بهم الجور وأد بناتهم، وينهون عن المنكر، بعد أن وصل بهم الظلم امتهان الغزو والسبي مرفقا من مرافق الحياة، وأمرهم شورى بينهم، بعد أن كانوا بددا في الصحراء، فهانوا على الناس، لأن شوكتهم كانت فيما بينهم، وعلى الآخرين مثلومة الحد أحيانا.

من هذا الوصف لبيان القرآن المعجز، ومعناه الذي لا ينبع من منبع سواه، معنى يطاوله (لأنه لا منبع للهدى الوضاء إلا منه)، نقف على سر هيمنته على سامعيه، وقدرته على اجتثاث الذلة من قلوب أتباعه، وغرس العزة والثبات على الحق بدلا منها، ونوقن أن هذا القرآن جدير بالإعجاب والتقدير، ونقر أنه ليس من قول الجن ولا من قول البشر، لأن براءته من نسبته لقول البشر واضحة وضوح الشمس، فكل من عرف محمدا عرفه أميًّا لا يجيد صنعة الكلام، وسأعرض للبرهنة على ذلك في قادم الصفحات إن شاء الله.

بهذا نكون قد وضحنا للقارئ الكريم شيئا من إعجاز القرآن البياني كمثال على إعجازه، لا حصرا لإعجازه الذي يمكن للباحث عنه تتبع المزيد منه في صفحات القرآن الكريم، بمؤازرة جهد ذوي الفضل من العلماء القابضين على ناصية علم الدين والدنيا، ليقف على رفيع أسلوبه، وبديع أحكامه اللغوي، وجليل معانيه، وحججه المنطقية، وحكمته التي أسرت عشاق الأدب من فحول الفصاحة في أمة العرب، كما ملكت عقول ذوي الحكمة منهم. ولذا سنكتفي بهذا الحد من الإعجاز، من حيث بلاغته وانفراده بجليل المعاني. لأننا كما ذكرنا في المقدمة، لا نقصد بهذا البحث العلوم لذاتها، نقدمها ونوفيها بيانها، بل قصدنا أن نتخذ من بعض شواهدها، شهود عدل على صدق الرسالة والرسول، لأن إثباتك لحق ما، لا يستدعي القاضي أن يلزمك بتقديم عديد الحجج والشهود، بل حجة حق يدعمها شاهدا عدل أو حول ذلك.

وكذلك الحال بي، اتخذت من القارئ قاضيا أنشد قناعته، بما تيسر لي من حجة ومنطق، وشاهد عدل أستطيع تقديمه. ليفصح له بما يسند قولي، فيتضح ما قصدت بيانه، فأغنم قناعته التي هي غاية ما أصبو إليه.

إعجازه العلمي:

سأعرض شيئا من إعجاز القرآن العلمي بنفس القدر ولنفس السبب والغاية، التي عرضت بها إعجازه البياني. غير أنني أضيف سببا آخر هنا حول محدود ما سأقدمه من إعجاز علمي، وهو أنني لا أستطيع أن أسبق الزمن الذي تتكشف فيه علوم لم تكن تخطر لأحد على بال، والتي بدونها لا يتسنى لنا الوقوف على ما تومئ إليه هذه الآية أو تلك، من القرآن العظيم الذي لم يفرط الله فيه من شيء تماما كالثمرة، تحتاج لعامل الزمن كي يتم نضجها ويحين قطافها، وسيتضح هذا المثل عندما نقدم الأمثلة على إعجاز القرآن العلمي، الذي سأكتفي منه بالآيات الكريمة الآتية، التي تنطق بالإعجاز كما سيأتي بيانه:

١ - قال تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٢٧ - ٣٠].

علاوة على ما ذكرنا في الصفحات السابقة، فإن كلمة (دحاها) هي من الكلمات المختارة بإعجاز، لتفي بوصف الأرض، بسطة واتساعا وعظما واستدارة.

وإن كانت الصفات الثلاث الأولى واضحة لأجدادنا الأول، فإن رابعة الصفات وهي الاستدارة لم تتضح لنا إلا بتقدم العلم فيما بعد.

وكلمة دحاها، الاسم منها دحية، ولا يزال كثير من القبائل العربية يطلقها على البيضة فقط، وليس على كل شيء مستدير.

(وتماثل شكل الأرض، وشكل البيضة لم يحدث صدفة. بل لأن الشكل البيضاوي هو أقوى تصميم عرف حتى الآن في فن البناء، كما تقول أحدث النظريات المعمارية).

فـ (دحاها) تعني الاستدارة البيضاوية. وثابت لنا الآن أن الأرض بيضاوية الشكل، وهذا إعجاز ناطق!!

٢ - قال تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النمل: ٨٨].

إن هذه الآية الكريمة لتنطق بالإعجاز العلمي، مما لا يحتاج معه إلى شرح أو توضيح، ولبيان ذلك نقول:

درج معظم علمائنا الأفاضل على اعتبار هذه الآية وصفا للجبال يوم القيامة، مع أنها تنطق بفصيح القول وواضحه، أنها تصف حال الجبال مذ كانت الجبال وما دامت الجبال جبالا، ويتضح هذا بتقديم بعض الآيات التي تصف الجبال يوم القيامة، ليرى القارئ ما تعنيه هذه الآية الجليلة المعجزة ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ ..... ﴾.

(أ) قال الله تعالى: ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴾ [الواقعة: ٤ -٦].

(ب) قال تعالى: ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [الحاقة: ١٤].

(جـ) قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾ [المزمل: ١٤].

(د) قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴾ [طه: ١٠٥، ١٠٦].

(هـ) قال تعالى: ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ [القارعة: ٥].

انظر لهذه الآيات الخمس التي وردت في القرآن الكريم، والتي لم تنزل دفعة واحدة، بل متفرقة في سني نزول الوحي الطويلة، وكلها تصف الجبال يوم القيامة، وصفا يدل على الهدم، فهي رج الأرض، وبس الجبال، ودك الأرض والجبال دكة لا حاجة معها لثانية، وترجف الأرض والجبال بحيث تكون الجبال كثيبا ينهال لنعومة ترابه، أو تنسف الجبال بحيث تكون كصوف مندوف متطاير.

هذه حال الجبال يوم القيامة، تدمير وتفتيت ولم ترد كلمة واحدة توحي بوجود إنسان حي، يرقب هذا الدمار الذي يسوي الجبال بسطح الأرض، فتراها قاعا صفصفا، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا، وطبيعي ألا يستطيع الإنسان البقاء في ذلك اليوم المهول، لأن عظامه ليست بأرسى في جسمه من الجبال الراسيات في الأرض، ولا عظامه في متانة صخور تلك الجبال. ولذلك فالأحرى بعظامه أن تكون هباء منثورا قبل أن تكون الجبال كذلك، لأن الأضعف، أسرع للزوال من الأقوى.

ولنعد للآية المعجزة: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا .....﴾ لكنني أريد أن أمهد لها بما يلي:

هب أن القارئ ركب طائرة في رحلة له من المغرب إلى الجزيرة العربية، فالطائرة مغلقة تسبح به في كبد السماء بسلاسة ويسر كأنه جالس في غرفته، وهو يرى أرفف الطائرة وعليها بعض الأمتعة وأزرار ومفاتيح أجهزتها المختلفة، ثابتة أمامه، وكل شيء في الطائرة يراه منغرسا في مكانه لا يبرحه، لكن حقيقة المنغرس الثابت هذا، هو أنه يغير مكانه بضعة آلاف الأمتار في الدقيقة الواحدة، فيمر من المغرب بالجزائر فتونس، فليبيا فمصر، فالبحر الأحمر، فالجزيرة العربية.

كل ما فيها يراه ثابتا أمامه، وما هو بثابت، إذ يمر كل لحظة بمكان غير

المكان الذي كان فيه، وكذلك الأرض، كلنا نجلس أو نقف أو نمشي عليها، وكل منا يرى الجبال أمامه ثابتة، وهي في حقيقتها غير ثابتة شأنها شأن أي أداة ثابتة داخل الطائرة، تماما كما جاء في الآية الكريمة، وكما نعلمه اليوم عن حالها.

فالآية تقول: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾.

في هذه الآية نلاحظ أن الكلام موجه لحي عاقل، إذ يقول له: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ ....﴾ ، والرائي هنا هو الإنسان، تحسبها: أي تعتقدها أو تظنها، جامدة: أي ثابتة مكانها، وهي تمر مر السحاب، تماما كأي بارز منغرس أمامنا داخل الطائرة، نراه جامدا وهو يمر مر السحاب من جو إلى جو.

ونلاحظ هنا أنه لم يقل مر الفلك أو مر الجواد، بل قال مر السحاب. وهذا يقرر حقيقة الوسط الذي تمر به الأرض حاملة جبالها. فهو وسط يكون مرور الجبال فيه سلسا بانسياب لطيف، كمرور السحاب فوق رءوسنا.

ثم ختمت الآية بما يجذب انتباه السامع إلى إتقان الصنعة التي أدت إلى مرور الجبال في أجواء الكون بلطف ونعومة وغاية الهدوء، حتى ليتراءى لك أنها جامدة وهي في حقيقتها تطوف بأجواء الكون، كما يطوف السحاب في أجواء أرضك.

إذًا، نحن هنا أمام إعجاز ناطق، يقرر بأن كرتنا الأرضية مندفعة في الأجواء، مارة من جو إلى جو في كل ثانية تحمل ما عليها، وهم لدقة إتقان صنعها لا يشعرون باندفاعها ذي السرعة الرهيبة، مما يتضح معه أن هذه الآية تصف إقامة بناء معجز، لا هدم بناء قائم، كما أشارت الآيات الخمس السابقة.

ومعلوم أن الأرض تمر مر السحاب لتشابه الوسطين اللذين يسيران فيهما؛ فالسحاب وسطه الهواء، والأرض وسطها فراغ فيه بعض الغبار الذري والأشعة الكونية، مما يعطي تشابها في انسيابهما السلس، كل في وسطه، وهذا التشابه هو الذي قالته هذه الآية المعجزة، قولا واضحا لا لبس فيه.

وإكمالا لهذا البحث، نورد الآية الآتية ليزداد بيان هذه الآية وضوحا، بالرغم من أنه لا ينقصه الوضوح، وإنما لأن تعدد الشواهد مدعاة لليقين المتين.

قال تعالى: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [النحل: ١٥].

المعنى: أن الله أقام الجبال في الأرض لئلا تميل بنا، وطبيعي أن هذه الأرض العظيمة الاتساع والانبساط، لا تميل بنا إلا إذا كانت ترتكز على مادة رجراجة كالماء، أو متخلخلة كالهواء، أو في فراغ.

أما الآية الكريمة التي منها: ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ [النازعات: ٣٠]، فتنفي ارتكاز الأرض على الماء، إذ لو أن الأمر كذلك لغطست كرتها في هذا الماء، وبهذا تزول عنها ظاهريا الصفة الكروية التي تحددها كلمة (دحاها) ويقررها واقع الأرض كما نعلمه اليوم، فلا يبقى أمامنا إلا احتمال غرقها في الهواء أو الفراغ، لتبقى استدارتها منظورة لنا، وإنها لكذلك؛ غلاف هوائي يحيط بها، ويتلوه حيز من فراغ به بعض الإشعاعات الكونية والغبار الذري وغاز الأوزون الذي يحمي الأرض من الأشعة فوق البنفسجية، وقد برهنا في الآية السابقة أنها متحركة غير ثابتة.

وإلقاء الجبال في الأرض رواسي حتى لا تميل بنا، المقصود به أن تبقى الأرض متوازنة ثابتة، منضبطة الحركة في سيرها في مداراها.

إذ لو لم تكن كذلك لأخذت تميل بلا حساب، مما لا يتناسب وحضانة الشمس لها ليتم تفريخ الأحياء فيها.

وهذا الاستقرار يشهد به انضباط المواسم والليل والنهار والأشهر والسنين ومواعيد نتاج الأرض المرتبط بذلك.

هذا هو السر في ضبط الأرض لئلا تميل، لأنه لا مخافة علينا أن نقع لو مالت، لانجذابنا إليها في أي وضع تكون عليه، فدورانها حول نفسها لتتم دورتا الليل والنهار، أشد أثرا من ميل يحدث، ومع هذا فنحن لا نشعر بهذا الدوران، لأننا كمسامير مثبتة في كرة، فعلى أي وضع كانت فهي لاصقة بها. وإنما الخطر كما قلت، والذي حجب العليم الخبير وقوعه، بجعل الجبال رواسي، هو ميل الأرض بلا ضابط، فتختلط المواسم، مما يفوت على الأحياء انضباط دوراتها الحياتية، ويعيق الطبيعة عن أداء دورها بانتظام، كالليل والنهار وإحداث الفصول الأربعة وتوزيع الحرارة والماء... إلخ.

لكنه صنع الله الذي أتقن كل شيء، فجاءت الأرض مادة وشكلا وغلافا وحركة، آية معجزة، تدل على عظم الصانع، فأصبحت كما نراها خير مكان وأنسبه لإحيائها.

ولقد جئنا بهذه الآيات الثلاث مثلا على إعجاز القرآن العلمي، تاركين للقارئ الكريم مواصلة التحري لجوهر الإعجاز ودرره، في بحر القرآن العظيم، وهي كثيرة ميسرة لمن أكسب نفسه علما يؤهله للبحث عنها، وسيكسبه دقيق التجارب متين الخبرات التي تنفعه والناس، فليجرب كل منقب حظه.

ولئن جئنا بهذه الآيات مثلا على الإعجاز العلمي للقرآن، وأعطانا المثل صورة واضحة لصفات الأرض التي نعيش عليها، فوصفها بأنها كرة بيضاوية، وأنها تسير في الكون، وأن جبالها جعلت لتمنع ميلها لتستقر

الحياة فيها، فإنه يؤكد أننا أمام كتاب عظيم، جدير بالتدبر والتبصر لأنه مليء بالبراهين التي تشهد بجلال الرسالة والرسول.

واختتاما لهذا الباب، فإنني أود أن أذكر نوعا ثالثا من الإعجاز ألا وهو الإعجاز التنبؤي الذي جاءت به الآيات الآتية:

إعجازه التنبؤي:

قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴾ [١ - ٧].

نزلت هذه الآيات عندما أخذ كفار مكة يتوعدون المسلمين بهزيمة كهزيمة الفرس الوثنيين للروم الذين يعتنقون النصرانية وأهل النصرانية لهم مواقف من المسلمين لا تخلو من عطف آنذاك، كموقف النجاشي من المسلمين الأول يوم هجرتهم إلى الحبشة. ولأن النصرانية رسالة رسول السماحة والرحمة عيسى عليه السلام، ومهما لحقها من انحراف عن العقيدة الحقة التي جاء بها المسيح، فإن هذا لا يجعلها تستوي والوثنية التي كان عليها الفرس، ولهذا اغتم المسلمون لاندحار الروم. فنزلت هذه الآيات تنبئهم بأن الروم بعد أن هزمهم الفرس، سينصرون على الفرس، وأن سيكون لنصرهم يومئذ قرين. ألا وهو نصركم على المشركين. وأن هذا سيكون خلال فترة لا تتجاوز تسع سنين (في بضع سنين). وعندها ستفرحون أيها المؤمنون، بنصر الله لكم، وبنصره لأتباع عيسى عليه الصلاة والسلام، على عبدة النار الوثنيين.

(قول واضح لا لبس فيه كما ترى).

وبديهي أنه لا يمكن أن يخاطر داع، بوضع كل جهده الذي بذله في سبيل دعوته، وهذه الأيام والليالي التي قضاها صابرا على جفوة أهله، وإظهارهم الكيد والعداوة له، بسبب ما يدعو إليه. نعم لا يمكن أن يغامر بكل هذا، بحيث يجعله موضع محك وامتحان لا يعلم نتائجه، والتي إن لم تتحقق، انفض من حوله من اتبعوه، لهذه السابقة التي فيها التقول (حاشا لله) واضح عندئذ، مما يجعل وباء الظن يعصف بما وقر في قلوبهم من علم اليقين.

نعم.. يستحيل أن يجازف بهذا بشر، فيعرض ما بناه للهدم من أساسه، إذ من ذا الذي يضمن له قيام الحرب ثانية بين الروم والفرس، فيما حدد من زمن ؟ وإذا قامت تلك الحرب، فمن ذا الذي يضمن نصر الروم — وهم في حضيض الضعف — على الفرس الأقوياء المنتصرين توًا على الروم وأن يجعل نصر المسلمين توأم ذلك النصر؟؟

لا يقدم على هذا بشر، إلا إذا كان يعلمه عِلْمَ اليقين. ومحمد صلوات الله وسلامه عليه، وصف في القرآن الكريم بأنه لا يعلم الغيب، لأنه لا يعلم الغيب إلا الله، لكنه رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى، بل هو وحي يوحى.

ولقد أوحى إليه الله بهذه الآيات، بشرى بين يدي رحمته، لأصحابه الذين آلمهم مصاب اتباع نبي كريم كالمسيح عليه السلام.

فهذه الآيات، شأنها شأن كل آيات الكتاب، قد نزلت عليه من ربه الذي أحاط بكل شيء علما. فعلم أنه النبأ اليقين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. فزفه بشرى الواثق بالله، لأناس يعلمون من هو محمد، الذي ما عرفوه إلا الرسول الأمين على

الرسالة، والذي يبلغهم ما يوحي إليه ربه، فيرسخ في قلوبهم رسوخا لا يزعزعه الخراصون أو المنافقون.

وكان نصيب هذه الآيات نصيب ما سبقها من آيات؛ إيمان مطلق بما سمعوا. فأصبحوا ينتظرون أمرا مفروغا منه، وما هي إلا مسألة زمن بحلول ميعاده يتحقق ما وعدهم الله. ووعده الحق. والله لا يخلف الميعاد.

وفعلا، ما مضت بضع سنين، إلا وحقق الله وعده. فانتصر الروم على الفرس، وانتصر المسلمون في بدر على المشركين. وكبر المسلمون فرحين بتحقيق الوعد الموعود، وازدادوا إيمانا على إيمانهم.

هذه واحدة... أما الثانية، فهي الآية الكريمة الآتية:

قال الله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]. هذه الآية، تنطق بأنها مسك الختام لآيات الكتاب العظيم، التي توالت نزولا على سيدنا محمد ﷺ، في ثلاث وعشرين سنة. فهي تنبئ أمة محمد، ألا ينتظروا مزيدا من الوحي لرسولهم، لاكتمال الدين الحنيف بما نزل من آي الذكر الحكيم.

وقد نزلت هذه الآية على سيدنا محمد ﷺ، وهو في رحاب البيت العتيق، حاجًّا في تلك السنة التي خطب فيها حجاج بيت الله خطبته المشهورة (خطبة الوداع).

نزلت هذه الآية، فتلاها ﷺ على الناس الذين استشفوا ما توحي به، فعلموا أن نبيهم يودعهم الوداع الأخير. إذ ما الذي ينتظر بعد اكتمال الرسالة ؟؟

وختم الكتاب المعجزة، بالآية المعجزة التي أبكت الناس في عرفات. وما مضت إلا فترة وجيزة، أتم فيها الرسول حجه، وعاد إلى المدينة، لتختتم الحياة العطرة باختتام الرسالة السمحة. وينتقل الرسول الأمين إلى

الرفيق الأعلى، بعد ثلاثة أشهر وبضعة أيام من نزول الآية التي آثارت عواطف الناس يوم تليت عليهم لإدراكهم ما تعنيه.

نخلص من هذا، أننا أمام كتاب فيه من الآيات ما يشهد أنه قول رب رحيم، أنزله رحمة بعباده الذين لا يرضى لهم الكفر، وحتى لا يكون للناس حجة على الله يوم يحاسب الإنسان بالحق، والحساب بالحق يعني كل نفس بما كسبت رهينة، ويعني أن من يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره، ولذا حق له على ربه أن يبصره، والله هو الحق فحاشاه أن يغمط عبده حقه، فهداه النجدين، ليجني لنفسه مما أفاء الله عليه، أو ليجني عليها بما حذره الله منه.

يتضح من هذا أن آيات الكتاب الكريم قد نزلت في ثوب قشيب من البلاغة، تتفجر منها ينابيع الحكمة والرحمة والحق المبين.

فجاءت معجزة في مبناها ومعناها.. ومعجزة بما تقرره من حقائق علمية أوردنا مثلا عليها.. ومعجزة فيما تومئ إليه من حوادث المستقبل، كما مثلنا أخيرا بالآيتين الدالتين على انتصار الروم بعد هزيمتهم، ودنو انتقال الرسول ﷺ إلى رحاب الله، بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة.

واستكمالا لهذا البحث، الذي دللنا به على أن هذه الرسالة، تزخر بالبراهين الناطقة بأن القرآن هو رسالة السماء للأرض.. فلا بد من نبذة موجزة عن دور الرسول صلوات الله عليه لتتضح لنا الصورة من جميع جوانبها، فنزداد يقينا بأننا أمة ذات حظ عظيم بهذا الكتاب الكريم الذي خصنا الله به، ليهدينا سواء السبيل، ويجعلنا الدعاة لهذا السبيل.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ
لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤
تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ
ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ﴾ [يس: ١ - ٦].

محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

حياة محمد ﷺ، وتأريخ أهل الجزيرة العربية قبل الرسالة وبعدها، ألفت فيهما مؤلفات تناولت الشاردة والواردة.

ولهذا لن أتطرق لشيء من ذلك إلا بقدر ضئيل، كمقدمة لهذا البحث الذي يهدف لتقديم جانب من الصورة لا يخلو من جدة.

الرسول العربي الكريم:

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي. توفي والده وأمه حامل به، ولما وضعته، عم السرور بيوت آل هاشم، التي لم تبرحها الأحزان لقرب عهدهم بوفاة أبيه الشاب. وأما أكثر الناس سرورا، فقد كان جده، الذي اعتبر مولده إحياء لوالده وذكراه العزيزة عليه. فشغف به، وأصبح سلواه على أشجانه وحزنه على ابنه عبد الله الذي اختطفته المنية وهو في ريعان الشباب.

وكانت عادتهم أن يربوا أبناءهم في القبائل العربية المجاورة لمكة فيتفقون مع المرضعات اللائي يرضعنهم ويشرفن على تربيتهم كأحد أبنائهن.

وكان نصيب محمد أن يربى في قبيلة بني سعد، لدى مرضعته حليمة السعدية، التي أحبته حب الأم لوحيدها.

ولما أتم المدة المتفق عليها، أعادته لأمه التي توفيت بعد قليل من انضمامه لها، فتكفله جده عبد المطلب، الذي توفي بعد سنتين، فكفله عمه أبو طالب، وهو ابن ثماني سنوات.

وكان محمد طيلة فترة تكفل جده له موضع الإعزاز والحب، ولما انتقل لكفالة عمه، لم يفقد شيئا مما كان يلقاه من إكرام وود صادق، بل إن هذه العواطف النبيلة نحوه كان يلمسها من جميع ذوي قرباه رجالا ونساء، ولا عجب، فالولد الذكر في تلك القبائل كان له مقام عزيز لدى الجميع لأنهم

يعتبرونه سندا لهم إن ألمت بهم الملمات.

ولهذا أغدقوا عليه العطف والرعاية، مما خفف من أثر وطأة اليتم عليه. وخاصة عمه أبو طالب، الذي كان رقيق الحال، كثير العيال ومع هذا، فقد كان حفيا به ومكرما له، ويخصه دون أولاده بالبر والعطف، فلا يتناول طعامه إلا معه، وإن تأخر محمد، أرجأ ذلك حتى يحضر. لأنه لا يطيب له طعام أو فراش إلا بمقاسمته له.

ولما بلغ الخامسة والعشرين، تزوج بسيدة فاضلة ثرية، هي خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.. فقد آثرته على أعيان قريش، بالرغم من فقره، لأنها توسمت فيه ما هو أثمن من الجاه والمال.. ألا وهو الشرف والأمانة وكل مناقب الرجال. فتعاشرا كأكرم ما تكون عليه العشرة بين زوجين وفيين.

وقد كان ﷺ، ميالا للعزلة والتفكير، وأخذ هذا الميل يزداد ويتضح قبيل بلوغه الأربعين. فاعتزل أهله ليتعبد في الخلوات كما كان يفعل بعض الأحناف الذين يتبعون بعض آثار ملة سيدنا إبراهيم المندثرة، فاختار غار حراء. وأعانته زوجه خديجة رضي الله عنها على ذلك. فكان لا يترك الغار إلا ليغير ثيابه ويتزود بطعامه وشرابه.

بدء الوحي:

بعد فترة من التعبد نزل عليه الوحي، فارتعد بشدة من مفاجأة ظهور جبريل عليه السلام الذي لقنه أول سورة نزلت من القرآن الكريم وهي: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾.

ولما قرأ لجبريل السورة، اختفى عنه وتركه مضطربا خائر القوة، وعندما استعاد شيئا من قوته، ترك الغار فزعا، ووصل بيته وهو بادي

الاضطراب، ودخل على زوجه صائحا: زملوني، زملوني. فغطته رضي الله عنها، وبقيت بجانبه حتى ذهب روعه وهدأ اضطرابه. فرأت أن العرق قد بلل ثيابه من شدة تأثره، فبدلتها، وقص عليها ما رأى، وحاله خير شاهد على ما رأى فصدقت ما روى، وشعرت بحلاوته ومعناه.

وعاود الرسول محاولة النوم، فتركته ليغفو، وذهبت لإنجاز بعض شأنها، وإذا به ينزل عليه الوحي بسورة المدثر: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾ [المدثر: ١]، ولما عادت إليه وجدته شديد الاضطراب والتأثير، وقد زهده العرق، فأنبأها بما نزل عليه من ربه، فأعلنت إسلامها.

وانقطع الوحي مدة بعثت الحيرة في نفسه، فكانت بجانبه تواسيه وتصبِّره، وتؤمله قائلة له: والله لن يخزيك الله.

وبينما كان يحادث زوجه يوما ما، إذا به ينتفض والعرق يتفصد من جبينه، ولما هدأ، قرأ عليها: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ [الضحى: ١، ٢]. واستمر ثلاث سنين يدعو للإسلام سرا، وهي تؤازره بكل ما تملك من مال ومقام حتى نزل عليه: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. فصار لزاما عليه أن يجهر بالدعوة.

حالة العرب عند بدء الدعوة:

عندما جهر محمد بالدعوة، بدأت مجابهة القوم له وهي من أصعب المجابهات التي يتصدى لها إنسان لأناس استبدلوا عبادة خالقهم بعبادة الحجر، فتحجرت قلوبهم، ومزقتهم النعرات القبلية لامتهانهم أسوأ أساليب التكسب.. كالربا الذي أصبحوا يعيشون عليه كقرين للتجارة، ويرون في تحريمه قطعا لرزقهم في بلد صحراوي محدود موارد الرزق، مما يضطرهم للتشبث به، ومعاداة كل من يحاول أن يتهدد معيشتهم بقطعه عنهم، خاصة وأنه أبسط وسيلة لجمع المال بدون جهد أو تعرض للخسارة.

ولهذا كان لا هم لكبيرهم أو صغيرهم إلا إرباؤه، بغض النظر عما يسببه من استغلال وظلم فادح للمعوزين.

ولكن ما الحيلة في بلد سرى فيه داء التفاخر، وحب الجاه الذي أصبح هدف الجميع، وخلت علاقتهم، فطفحت قلوبهم بالحقد والكيد لبعضهم بعضًا، ولولا العرف القبلي السائد آنذاك، لغلوا في عداوتهم لبعضهم، لحد الاقتتال مع ذوي قرباهم.

أما من كانت ظروفهم لا تؤهلهم للمراباة، وهم غالبية من يعيشون خارج القرى الكبرى، فإنهم كانوا ينهجون أسلوبا آخر لكسب الرزق والإثراء كقرين للزراعة والرعي، ألا وهو الغزو والإغارة على قوافل التجارة، وكانوا لا يرون في ذلك معرة أبدا... بل مفخرة تؤهلهم لعلو المنزلة، واستمع لشاعرهم:

إقــذف الــسرج علــى المهــر وقَــــرِّطْهُ اللجامــــا

ثــم صُــبَّ الــدرع في راســي ونــــاولني الحــــساما

فمتــــى أطلــــب الــــرزق إن لم أطلــب الــرزق غلامــا

وعادة لا يتهيأ هذا الأسلوب المعيشي، إلا للأقوياء الجبارين فعلى الداعي إلى تحريم هذين الأسلوبين –الربا والغزو - أن يواجه صادق العداء من أناس مردوا على الكيد والحقد ودفين الغل والرياء وآخرين درجوا على الغلظة والقسوة وانعدام الضمير، فمن ذا الذي يستطيع أن يزحزح هذه القوى السادرة فيما هي فيه من غي وضلال؟

هذه هي إحدى الحالات التي كانت تواجه محمدًا عندما أمر أن يواجه قدره، بإنذار عشيرته الأقربين.

أما الثانية: فإن ظروف الجزيرة العربية فرضت على أهلها التكتل القبلي، وغالوا في الانتماء العرقي للحد الذي يكاد معه أن يجعل إرادة الفرد

هي إرادة قبيلته. واستمع لشاعرهم :

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشدِ

ويقابل ذوبان شخصية الفرد في قبيلته شعوره بأن قيمته الفردية تتوقف على قيمة قبيلته، ومدى ما هي عليه من عدد فعال وقوة غلابة، وانتشار يعطيها أرضية واسعة في الجزيرة تعين أبناءها على انتجاع مصادر الرزق، آمنين من غارات القبائل الأخرى.

وطبيعي أن يركب الغرور الجاهل القوي، الذي ما أن يرفع رداءه على عصاه، ملوحا طلبا للنجدة إلا ولباه القريب منه من أفراد عشيرته ظالما أو مظلوما، ونزلوا ساحة النار التي أشعلها دون سؤاله: لم أشعلتها؟ فإن كفت النجدة لإنهاء الأمر، انتهى الأمر إلى حين. وإن استفحل الشر، هبَّ المستصرخون على عتاق الخيل وكرائم الإبل، يحشدون للشعلة التي لم تنطفئ، مزيدا من أبطال القبيلة وقودا. وكذلك يفعل الغرماء. فتزداد الشعلة التهابا واتساعا وتعمقا حتى يأتي أوارها على الطرفين، أو على أحدهم، لكن نصيب الجميع منها الوهن. فالشجعان من الرجال قتلوا، وخلفوا جيوشا من الثكالى والأرامل والأيتام ومشوهي القتال.

والغريب أن القبيلة التي لا تتصف بالمغالاة في الفتك بالآخرين، أو تحيد عن الجبروت والغلظة في معالجة أمورها مع القبائل الأخرى، فإنها تكون مغمزا لكل ذي مخلب وناب، من قبل أناس احتكموا لشريعة الغاب. واستمع لشاعرهم الذي يبين ما كانوا عليه من علاقات لا تعتمد إلا القوة :

ونشرب إن وردنا الماء صفوًا ويشرب غيرنا كدرًا وطينَا

ثم يقول :

إذا بلغ الرضيع لنا فطاما تخر له الجبابر صاغرينا

وقد تفشت هذه الروح في الجميع، أفرادا وجماعات. حتى أصبح

الصلف والعناد والغرور، والبذل والتضحية في سبيل الباطل، من سمات الغالبية العظمى، مما جعل الحياة ثقيلة على النفس التي فطرت على حب الحق، وتذوق جمال الحياة. لأن الناس كانوا يبحثون عن الشر بحثا. وينشدونه بالتمحك بالآخرين والتعالي عليهم.. حتى أن الشاب منهم، كان يكشف عن ساقه يوم تجمع السوق القبائل، وينادي متحديا: أنا فلان بن خزام الأنوف الشامخة، فهل خلق الذي يمس مني القدم؟

وبديهي أن يستثير هذا القول المهين، شبابا يتحفزون للشر بالطبيعة، فما أدراك إن سمعوا نابي القول، الذي لم تهضمه أسماعهم يوما ما ! فلا بد أن تطير في الحال تلك الساق بترا، لتكشف الحرب عن ساقها، بين قبيلة من تحدى، وقبيلة من رد التحدي. ولا يعلم إلا الله، ما ستجره هذه الحرب على الفريقين، وعلى حلفائهم من القبائل الأخرى، لأنها حرب يطول مداها.

وقد قست القبائل على بعضها بعضا، قسوة تجاوزت ما تعارف عليه البشر، حتى أن الضعيف أصبح نهبا للقوي. وتعمقت بينهم العداوة، لدرجة اليأس من رأب الصدع الذي جعلهم بددا، لا هم لهم إلا التآكل والاهتراء، فزال الأمن حتى من الأماكن ذات القدسية والإجلال عندهم، كحرم البيت العتيق بمكة، مما اضطر معه عقلاؤهم لعقد حلف الفضول للحد من الغلواء التي تجاوزت كل معقول.

وخلاصة الوضع الذي كان يواجهه محمد صلى الله عليه وسلم، يمكن إيجازه كما يلي: أمة مزقها الغزو والسلب والنهب إلى قبائل متطاحنة، وأورثها هذا التطاحن قلوبا متقرحة بالعداوة، فياضة بالبغضاء وركبوا رءوسهم، بل سلموها لكل أسباب الهلاك، كالربا والقمار، والتفاخر وتسلط الأقوياء على الضعفاء. مما جعلهم كالثوب الخلق يحتار الرفاء فيه.

هذه نبذة مقتضبة عن أحوال الناس الذين أمر الله محمدًا ﷺ أن يبلغهم رسالته، ويعلمهم الكتاب والحكمة، مبتدئا بعشيرته الأقربين، ليستجيب له منهم من يعينه، ويشد أزره على نشر كلمة الحق في ربوع الجزيرة العربية، فتصبح قبائلها خير أمة أخرجت للناس بعد أن تزكيهم الرسالة الإسلامية بتطهيرهم مما شابهم من الأدران التي ألمحنا إليها.

وليتصور القارئ صعوبة الأمر الذي وكل إليه صلوات الله وسلامه عليه، ليروض بأمر ربه أولئك القوم العتاة الذين إن قدر لهم وعقلوا ما جاء به هذا النبي الكريم وصدقوه، فإن نفوسهم التي مردت على المعاصي واستمرأتها، ليس من الهين عليها أن تقلع عما تعودته وجرى فيها مجرى الدم، وجعل إرادتهم مسلوبة أمام ما درجوا عليه، مما ينتظر معه أن يركبوا هوى النفس ويتنكروا لداعي الحق الذي عقلوه، لا لشيء، إلا لأنه يتعارض وما صلبت عليه غرائزهم.

تماما كما سبق وقلت: بأن المدمن، مع إيمانه بالضرر الفادح الذي يلحقه به ما أدمن عليه، فإنه لا يقوى بسهولة على الإقلاع عنه، والانعتاق منه، وإن وفق، فإنه يحتاج إلى جهد جهيد دائب، تدعمه إرادة صلبة قادرة على الصمود لضغوط الغرض ودواعي العادة التي هو بصدد النفور منها.

طاله كما ترى، ميئوس من إصلاحه، ولا يقوى أي مصلح عادي على التفكير في الإقدام على مجابهة أولئك القوم، ليلزمهم بتغيير ما هم عليه من باطل أضلهم وأعمى أبصارهم.

تأهيله لحمل الرسالة:

لقد أهل الله سيدنا محمدًا ﷺ لهذا الأمر، كأحسن ما تكون الولاية، لا لخارق الفكر والعزم الشخصي الذي لا يدانيه فيه آخرون، بل لأنه صلوات الله عليه لا ينطق عن الهوى... بل بما يوحيه إليه ربه. أي بمعنى آخر، أن

الذي تولى إصلاح بال أولئك القوم هو الله سبحانه وتعالى رحمة بالعالمين، وتحقيقا لعدالته إذ يقول سبحانه: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء: ١٥].

وقد مضت سنة الله تبارك وتعالى على أن يتولى هداية عباده، بإرسال الرسل إليهم عبادا منهم، يتلون عليهم ما أنزل الله إليهم، ويعينونهم على تفهمه، والتخلق به واتخاذه مسلكا لهم، فيما يضمرون ويقولون ويفعلون. أي ليطابق هواهم، ما تنص عليه كلمات الله إليهم.

وهكذا الحال بسيدنا محمد ﷺ فقد تولاه الله جل جلاله، برعايته وتوجيهه، بحيث أصبح أهلا لأن يكون للأميين رسولا، قادرا بما أوتي من خلق قويم، غرسه الله فيه. وقول كريم، أنزله عليه. أن يجعلهم يسلمون الأمر لله. إيمانا به، وتصديقا بنبيه الذي مَنَّ الله به عليهم، بإرساله لهم.

ولبيان أثر رعاية الله لمحمد صلوات الله عليه، وتأهيله للقيام بالرسالة، فلابد من ذكر براهين هذه القضية للقارئ العزيز، لأننا نريدها قضية مبرهنة، ثمرتها اليقين، لا قضية إيمان شكلي، يعتمد على التلقين.

أما براهين ذلك، فيمكننا استشفافها بسهولة مما يلي:

أولا: قلنا: إن سيدنا محمدًا ولد يتيم الأب، ولم يتجاوز السادسة من عمره، إلا وفقد والدته، لينتقل لكفالة جده عبد المطلب لمدة سنتين، تنتهيان بوفاة جده، لينتقل لكفالة عمه أبي طالب.

وقد نتج عن ذلك اهتزازات عنيفة متتالية لوجدانه الغض، الذي ما أن ينعم بالعاطفة الدافئة، إلا ويفقدها ليحاط بعاطفة دافئة من نوع آخر. وأتاح له هذا التعويض العاطفي المتواتر تجربة علاقات اجتماعية حساسة وعميقة، كان لها أثرها الدقيق بتقلباتها في مجرى حياته.

فهذه حليمة السعدية، أرضعته الود الخالص، والإخلاص الإنساني

الرفيع، مع لبن ثدييها، وأترابه وذووهم من قبيلة بني سعد، منحوه من العطف والمحبة، ما لا يطمع في مزيد منه من هو بين أشقائه وبني عمومته وأعمامه. الأمر الذي آمن معه بالتجربة أن القلوب التي لا أنساب بينها يمكن تقاربها وتوادها، التواد الذي يمكن ادخاره والاعتماد عليه.

أما والدته، فقد أرهف فقدانها زوجها إحساسها، وأثر عليها شعورها بالوحدة، كأنها غريبة في هذه الدنيا. فصقلت عواطفها البشرية، وتحولت كلها لعاطفة الأمومة التي هي أنقى عاطفة في الوجود، فرأت في وليدها البلسم الشافي لكل شكوى، والحظ البسام المرتجى، لتحقيق الآمال الغالية، فأغدقت عليه بما جعله يؤمن بالأمومة إيمانا عميقا. وبالتالي، يوقن أن الإناث وهن جميعا قد أخذن أو سيأخذن دور أمه، بالنسبة لأطفالهن، لأجدر الناس بلين الجانب، ووافر الرحمة، واحترام الشعور الرقيق الذي يمتزن به، بدلا من الظلم الفادح الذي نزل بساحتهن، والذي كان بعضه، دفنهن أحياء!!

وكذلك الأمر بالنسبة لجده وعمه، اللذين أبراه وأكرماه، ووداه الود الأبوي الكريم، الذي غرس في قلبه الوفاء لذوي القربى، وأكد له أصالتهم أصلا وفرعا، لحنوهم عليه ورعايتهم له، واهتمامهم به.

وبهذا يكون قد رضع صلوات الله عليه، شطري الحب للإنسانية جمعاء. الغرباء منهم، لتجربته مع قبيلة بني سعد... والأقرباء، لتجربته مع أهله وذويه. مما وثق الروابط الإنسانية لديه، تأهيلا وتمهيدا لإرساله للناس كافة.

ثانيا: إن الصفات الشريفة والأخلاق الكريمة وانطواء سريرته على أنبل العواطف، وأنقى المكنونات التي احتوتها ضمائر البشر، جعلت الأفعال وردودها بينه وبين من يعاملونه، تعود بمردود كله الخير، ماديا

ومعنويا عليه وعليهم. فحظي بمنزلة طيبة عندهم، حققها بالأصالة الإنسانية الحقة، دون مشهيات لتقبلها، كاشتراء عواطفهم، أو رشوتها بالكرم المادي المزيف، الدنيء الغرض، لأنه لا يرضى لنفسه هذا الأسلوب الذي يعتبره استرقاقا خفيا للبشرية التي كان في مكنون الغيب أن سيبعث لتحقيق كرامتها بإبعاد زيف التصرف وغثه عنها.

وقد شاءت حكمته سبحانه وتعالى أن يفقده السند المادي قبل البعثة، كما أفقده المساندة الأبوية، فعاش يتيما فقيرا، ليكون اعتماده في تحقيق الصدارة الحقة على ذاته. وبالوسائل الشريفة المستندة إلى الحق والمثل السامية كما قلنا.

وكذلك ليكون شظف عيشه نورا يضيء له ما حوله، ليرى المعوزين من اليتامى، والأرامل، وضعاف البشر ليعينهم على تجاوز عقبات ما هم فيه، ولتعينه تجربته مع العوز على تحمل المشاق في سبيل الدعوة التي سيكرمه الله بحملها للعالمين.

وقد كان صلوات الله عليه كذلك. حتى أنه لما أمر بالجهر بالدعوة، وواجه الناس يحثهم على الإقلاع عن غيهم الذي استمرأوه، لانقلاب المفاهيم لديهم آنذاك، لم يعمدوا لتسفيهه أو تحطيمه بالتشهير به، مستغلين بعض الهنات البشرية ليجسموها بالبناء عليها كما يبني الثلج — عدو دفء الحياة -، على هباب الجو الذي لو دخل جفن العين، لما شعرت به. ولقد كانوا حريصين على ذلك، لو أنه صلوات الله عليه أحدث في الأربعين عاما التي سبقت الرسالة، حدثا تشتمّ منه نقيصه. لكنه (أجل الله مقامه) سلم من الهنات هذه، بل على العكس كان ضخم الرصيد الرشيد لديهم، مما لم يبق معه أمامهم إلا اتهامه بالمس الذي لحق بعقله، طالبين له الشفاء !! وما أوقعهم في هذه البلبلة الباطلة إلا أعيانهم الذين رأوا في دعوته القوية،

لتسلحها بالحق، خطرا يقتلع جذورهم الخبيثة، لِيَنبُت في الساحة جيل تستقي جذوره النزاهة والحق، فيشع النور منه على الناس أجمعين.

نخلص من هذا أنه ﷺ قد أهل اجتماعيا لحمل الرسالة للناس من ربهم، وذلك بما رصده لديهم من الثقة به، طيلة الأربعين عاما التي أمضاها بين ظهرانيهم، عطر السيرة مأمون الجانب، كريم الخلق، مبسوط اليد، راجح العقل، يصل الرحم، أمينا يودعون لديه أثمن أموالهم، وأخطر أسرارهم.

كما أنه قد أهَّل لتلقي الرسالة المطهرة، بصياغته الصياغة الوجدانية والجسدية، بإمراره في التجارب الممتازة، مع مختلف الدرجات من الأقرباء والغرباء، حتى أنه بعد أن أرسل إليهم، ولاقى منهم ما لاقى، لم يزد على طلبه من الله إلا الغفران لهم، لأنهم لا يعلمون. لإدراكه أنهم كالمرضى، لما ران على قلوبهم من قتار السوء، الذي بعثه الله لإزالته.

بهذا نكون قد أوضحنا كيف أعد ﷺ، الإعداد الممتاز لتلقي الرسالة وإبلاغها للناس الذين لم يعهدوا فيه شيئا من فاحش القول أو جانح العمل عن سوي السبيل.

براهين صدقه ﷺ:

إكمالاً لبراهين القضية، يبقى علينا بيان الأدلة، التي تؤكد صدقه فيما جاء به عن ربه من قول كريم، أضاء الدنيا بنور الحق المبين. والأدلة على ذلك عديدة لا يتسع هذا المقام لتقديمها جميعها، لأنني كما قلت، أبحث عما يفي ببيان القضايا التي أقدمها، بحيث يتقبلها القارئ بإيمان، تاركا له الاستزادة من ذلك، ما شاءت له قدرته وظروفه.

لهذا، سأكتفي بما يحتويه البحث الآتي من براهين صادقة، تؤكد صدقه صلوات الله وسلامه عليه.

تمهيد:

عاش رسول الله ﷺ في بيت عمه أبي طالب، بعد وفاة جده، وكان عمه فقيرا كثير العيال. وضاعف من ثقل حمله هذا، انتقال سقاية الحاج ورفادته إليه، بعد وفاة أبيه، وسقاية الحاج شرف يغبط عليه، لكنه أمر يتطلب سعة في الرزق تفي بتكاليف ضيافة الحجاج كل عام، هذه الضيافة التي كانوا يعدون لها على مدار السنة، زبيب الشام وبرها، وتمر الحجاز وسمنها، مع عسل اليمن ليقدم قرى للحجاج يوم وفادتهم على البيت العتيق.

فانتهى الحال بأبي طالب إلى فقر مدقع، بالرغم من عون أخيه السخي له، والذي كان يهدف من ورائه إلى غرضين:

الأول: دعم أخيه على شرف الغاية، وتثبيتا لها في بيتهم، لأن أي قصور من أبي طالب يمس مكانة الأسرة المبجلة عند العرب.

والثاني: كان يؤمل نفسه بأن يسلم أبو طالب له أمر السقاية والرفادة نظير تجاوزه عن ديونه التي ستتراكم عليه. وفعلا أخذ أبو طالب ينوء بحمله الذي أنقض ظهره. ولولا شرف منزلته وعراقة بيته، لما وجد ما يقتات به عياله.

ولك أن تتصور حال طفل يتيم يعيش معدما في أسرة معدمة، مما اضطره لأن يرعى الغنم وهو لا يزال غضا لم يتجاوز الحادية عشرة، ليرفع بذلك تكاليف عيشه عن كاهل عمه الذي أصبح لا طاقة له في إعالة أسرة عديدة الأنفس كأسرته. حتى أنَّ وُدَّ عَمه الخالص له لم يدرأ عنه مر الحياة، لشظف عيشهم وإلحاح العسر عليهم.

ورعاية الغنم آنذاك هي أقرب للسخرة منها للعمل، إذ أن أجرها لا يكاد يفي بلقيمات من شعير، أو حبات من تمر يقمن أود الراعي الذي يمضي نهاره متنقلا في شعاب مكة التي تتلظى من حر السموم، حتى أنك

لترى الرعاة كأنهم هياكل تسعى خلف عجاف الشياه، التي ألح عليها الجدب وقسا، في بلاد عهدها بسني الجدب أوثق من عهدها بسني الخصب.

ثم انتقل صلوات الله وسلامه عليه من رعاية الغنم إلى شبه أجير مع التجار، لكنها كانت خطوة هامة في حياته، نقلته من حياة العزلة إلى مخالطة الناس، مما أتاح له الوقوف على مسلكهم، وهم بدورهم أخذوا يستشفون بواكير ما يمتاز به من أمانة وخلق كريم، يزداد رسوخا ووضوحا مع الأيام. مما جعل الناس يتناقلون هذه الصفات الحميدة، بإجلال وإكبار. لأنها صفات تعشق وتحب، لندرتها في زمن هيهات من يقوى فيه على التخلق بها. لأن ضلال الناس هوى بهم في مكان سحيق لا يقوى أحد على الانعتاق منه.

ولهذا سرت صفاته الكريمة بينهم سريعا، ووصلت أخباره هذه إلى امرأة ثرية تدعى خديجة بنت خويلد، التي كانت محط أنظار سراة مكة وأشرافها، لمالها وجمالها وعراقة بيتها، وكانت أمنيتها أن تتولى تجارتها يد أمينة تريحها من تعدد العملاء الذين لم تكن ولايتهم على أموالها تعود بربح مجز.

فاتفقت رضوان الله عليها، مع محمد ﷺ على أن يتولى شأن تجارتها، وهو لا يزال فتى لم يتجاوز الثانية والعشرين.

فواتته الفرصة كي يبرهن عمليًّا عن ذكائه وفطنته وأمانته، وقد كان له ذلك، كأحسن تكون البراهين، وعاد لها بالربح الوفير الذي ينطق بجودة الإدارة، ونقاء اليد والضمير، فطابق عمله ما سمعته عنه، فأيقنت أن قد أبر بها الله فدفعت له مزيدا من أموالها، فازدادت على يديه ربحا. حتى انتهى الأمر بها إلى ثقة لا تدانيها ثقة بهذا الشاب الذي لم يملأ نظرا منها، طيلة عمله معها لفرط حيائه، وجم أدبه ومتانة خلقه وأصالة عهده؛ لأنه

ينزع عن شرف رفيع.

فألمحت لبعض خاصتها بأنها ترغب في الزواج منه وهي التي رفضت أشراف مكة وأعيانها، لأنها آنست فيه مثلا ومناقب لا تقدر بمال، ولا يدانيه فيها أحد من أولئك القوم المقامة وجاهتهم على أسس من رمال.

وقبل صلوات الله وسلامه عليه ذلك. بل أسعده وسره أن يقترن بامرأة خبرته بها ملأته بتوقيرها وإجلالها. وتم زواجه منها، وهو ابن خمس وعشرين سنة وهي في الأربعين من عمرها.

هذه حاله صلوات الله وسلامه عليه في مطلع حياته، فما الذي نستشفه منها؟؟

هب أن محمدًا رجل عادي من أهل مكة، علمت نشأته وقسوة الأيام عليه؛ عضه الفقر واليتم، ثم ابتسم له الحظ، وأبدله كل ما ذكرنا، بالعيش الهنيء، ووفرة المال والزوجة الواثقة به، الحانية عليه، فما الذي تنتظره منه؟؟ لاشك أنه لن يفارقه شبح الفقر الذي عرفه وأشقاه، وسيبقى أحرص الناس وأقبضهم يدا، خشية أن تجرفه بسطتها، لسابق عهد يرى فيه العوز كابوسا يطارده، من شدة ما قسا عليه.

نعم إن رجلا كهذا، أعنته الفقر وأعناه الكد، لن يرضى لنفسه أن يدجل على زوجته لتركب رأسها، فتبدد ثروتها على دعوة يعلم أنها كاذبة (حاشا لله والعصمة لرسوله)، فيثيبها على الثقة به، بالدجل عليها، وعلى رفعها له لينعم بالخير الوفير، بجرها وفلذات كبده منها، إلى جحيم الفقر الذي لا تكاد عيناه تصدقان بأن الله قد أعتقه منه !! هل يعقل أن يفعل إنسان عاقل ذلك ؟ وما أدراك بمحمد المتصف بالكمال عقلا وخلقا.

إذًا، هناك أمر غير عادي وضح لهذه الأسرة، فجعلها ترى بعين الحق الذي تبلج لها، الطريق السوي إلى الله، فآثرت السير عليه على ما سواه،

وهان كل شيء في سبيل دعم دعوة الحق هذه.

فما الذي حدث؟ ليبعث اليقين في نفس خديجة، فتفتح دارها لأتباع محمد سرا لينهلوا الهدى من رسول الهدى؟؟ وأنفقت أموالها عليهم يوم فرض الناس عليهم حصارا كاد يهلكهم؟؟ وما الذي جعلها تحمد الله عندما طلق ابنا أبي لهب ابنتيها؟ واعتبرته منة من الله على الأسرة لتطهيره ابنتي رسول الله من دار الكفر؟

ثم ما الذي حدث لأبي بكر، صديق رسول الله ورفيق صباه؟ فجعله ينفق ثروته الطائلة على دعم الدعوة، وعتق المؤمنين المعذبين المغلوبين على أمرهم الذين سامهم أسيادهم سوء العذاب بسبب إيمانهم؟ وجعله يهجر بلده وأهله ليهيم على وجهه مساندة لرسول الله، وتثبيتا لكلمات الله وإعلاءها في الأرض؟

وما الذي جعل عمر بن الخطاب يعدل عن الفتك بأصحاب رسول الله، إلى الوقوف بجانب رسول الله وأصحابه؟ وأبدل قسوته وجفوته، بصادق الأخوة للمؤمنين؟ واطمأن قلبه بذكر الله، فلان جانبه، ونزع الغل من صدره، فأعز الله به الإسلام، بعد أن كان يتهدد أهل الإسلام؟ ما الذي حدث لهؤلاء وغيرهم ليقدموا على هذا؟ وهو أمر لا يقدر عليه إلا من رأى ما هو أعز من الحياة وأبقى.

إي والله لقد رأوا الحقيقة مجردة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، حتى أن أم حبيبة زوج رسول الله طوت فراشه عن أبيها أبي سفيان، ولما استغرب أمرها أجابته أنت مشرك. والمشرك نجس لا يمس فراش رسول الله !! قالتها تشخيصا أمينا لحال من كان لله خصيما، ومن كان خصيما لله فلا يرجى له ود.

وأما الحقيقة التي وقف عليها هؤلاء البررة، فآثروها على حياتهم

وأهليهم هي :

١ - سمعوا قولا كريما لا يداني أصالته ووضاءته قول آخر، مهما أوتي القائل من بلاغة وضلاعة، فجاء معجزا يتحدى الناس أجمعين، فعجزوا عن التحدي، وأقروا بأنه ليس بقول الجن ولا بقول البشر.

٢ - أن من يتلوه عليهم، ويبينه لهم، ويغرس فيهم فضائله هو أحدهم، وقد خبروه أميا لا يجيد صناعة الكلام المتعارف عليه. فما أدراك بالقول الكريم المعجز؟ مما جعلهم لا يشكون بأنه تنزيل العزيز الحكيم.

٣ - عادة أرباب الأدب وبليغ القول، أن يحضروا أطروحتهم كما يحضر الرسام لوحته، فتلمس الصناعة واضحة في اللوحة والأطروحة، بالرغم من الجهد المبذول ومعاودة المراجعة للتدقيق والضبط.

لكن محمداً صلوات الله وسلامه عليه، يكون جالسا مع إحدى زوجاته، أو أحد أصحابه، أو بين جماعة منهم، وإذا بالوحي ينزل عليه، فتأخذه غمرته وهم ينظرون، فيتفصد منه العرق، والجهد ظاهر عليه، فيغطونه بثوب أو ما شابهه، وبعد أن يسري عنه، يعاود جلوسه بينهم، ليتلو عليهم ما أوحي إليه، فيكتبه كتاب الوحي ويحفظه المعنيون بحفظ القرآن. هكذا، من الله، لرسوله، للمؤمنين، في سويعة من نهار أو ليل. لا تحضير ولا عصر فكر ولا استدعاء للكلمات المنمقة، لأنه لا عهد له بعلم الكلام، قبل أن يكلفه الله بإبلاغ الناس أشرف الكلام.

٤ - عهدوه طيلة الأربعين عاما (وهي عمره قبل الرسالة) عزوفا عن الدنيا وبهرجها، صادقا، أمينا، حييا، فهل يعقل أن يمضي إنسان فوران شبابه وشهواته العارمة عفا، نزيها، أمينا، صادقا، ومستودع أمانات الناس وأسرارهم، ومضرب المثل في كل الطيبات من القول والعمل، ثم يجيء بعد أن أصبح كهلا، ليختتم حياته بالافتراء والتقول على الله ؟! وبعد

أن كان خير الناس، يكون فتنة للناس؟!

٥ - هم يعلمون أن محمدًا عاش يتيمًا، ورضع الحنان من كل أهله وعشيرته. ويعلمون أيضا أنه مفطور على صيانته للمعروف، وفيا لأهله.

وإن تنكر الناس لفضل ما، فإنه أحرص الناس على تقدير ذوي الفضل، هل يأتي بعد هذا ليسفه أحلام أهله وعشيرته، ويهدم مكانة أسرته بيديه، وهي المتربعة على عرش التقدير والاحترام لدى العرب جميعا؟؟ ويتصدى لهم وهم أحباؤه، بما يهز مكانتهم ويضطرهم لصب أذاهم وجام غضبهم عليه؟ فمنهم من يشتمه بأقذع الشتائم، ومنهم من يجلله بسلى الجزور، وهو ساجد لله، ومنهم من يعتدي عليه كعقبة بن أبي معيط، الذي وطئ على رقبته الشريفة وهو ساجد عند الكعبة حتى كادت عيناه تبرزان، ومن ثم يعرض الناس الذين صدقوه وآمنوا به إلى العذاب الأليم والموت طعنا بالحراب، كما حدث لسمية الأمة المسكينة رضي الله عنها؟!!

أيرضى محمد هذا، وهو صاحب القلب الرحيم الذي كان عنوان الإنسانية المثلى، يوم كانت الإنسانية تطلق مجازا على أولئك القوم؟ أيخطر ببال رجل أن يفعل بنفسه وأهله هكذا، لو لم يكن أهله على الباطل وهو على الحق؟ فاختار جانب الله، ونبذ كل المشركين به؟ وهل هناك أسوأ من قوم يعبدون الحجر، ويعيشون على الميسر والربا والغزو وأصبحوا كالسمك يأكل قويهم ضعيفهم، ويعالجون الخطأ بالباطل، كأن يدرءوا عن عرضهم السبي بوأد بناتهم؟!.

٦ - قال الشاعر:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تُعْلَمِ

فما أدراك برسول الله، الذي كان يعايش أهله وأصحابه كل وقته. فهل يستطيع التخفي عليهم العمر كله؟ أم أنهم لمسوا فيه أصالة الدعوة

وصدق الداعي، لتخلقه بما جاءه من قول كريم؟ فعلموا أنه الحق فآمنوا به، وصدّقت أعمالهم وثباتهم حتى الموت هذا الإيمان؛ لإدراكهم أن الإيمان هو ما وقر في القلب وصدقه العمل.

ألا إن حياة محمد كلها براهين على صدقه، فقد أمضى حياته مرشدا ومعلما بهدي كتاب الله، متواضعا، يحمل حاجياته لأهله بنفسه، ويجلس حيث ينتهي به المجلس، رحيما، جوادا ينفق ما بيديه على المحتاجين، ليعيش على الأسودين، الماء وقليل من التمر. وتمضي الليالي والأيام، لم تشعل في بيته نار لطعام. مرددا قوله الشريف: «**جئت لأتمم مكارم الأخلاق**». واختتم حياته الجليلة بوصيته التي هي عنوان النزاهة عن الغرض الدنيوي، فقال: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة**».

هذه نبذة موجزة عن حياة الرسول الأمين، استشهدنا فيها ببعض الأدلة، التي تنطق بأنه رسول رب العالمين، علما بأن كل يوم في حياته صلوات الله وسلامه عليه، يشهد بأنه جاء بالحق مبشرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا.

وإنا لنرجو أن يكون في اقتران نور حياة رسول الرحمة بنور آيات الله، قد أعطى لهذا البحث وضوحه وبيانه.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٌ
وَمِنۡهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ
وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ
ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ
بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا
ذَرَأَ لَكُمۡ فِى ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَأَيَةً لِّقَوۡمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٠ - ١٣].

الخلاصة

١ - كل ما في الوجود، مما أحاطت به معرفتنا، يتكون تكوينا ذريا، والذرة من الصغر بحيث تعتبر فارغا، مما يؤكد أن رب الموجودات جميعا رب واحد لا شريك له، لأن الذرة التي لا تعد شيئا مذكورا، لا تحتاج لأكثر من إله واحد لإيجادها.

٢ - تتكون الذرة من نواة، تدور حولها إلكترونات يختلف عددها من ذرة إلى أخرى، وكذلك الكون، فإنه يتكون من تشكيل يماثل تشكيل الذرة: نجم تدور حوله كواكبه، وتسمى مجموعته باسمه. ومثال على ذلك، مجموعتنا الشمسية: الشمس تمثل النواة، وكواكبها التسعة السيارة التي منها أرضنا، تمثل الإلكترونات التي تدور حولها. وشمسنا بكواكبها وأقمار كواكبها، تتجمع مع مائة ألف مليون نجم، لتكون مجرتنا — درب التبانة — ومجرتنا تتجمع مع مجرات أخرى، ليتكون تشكيل مجرى يدور حوله ما هو أدنى منه من التشكيلات المجرية، ويدور هو حول ما هو أعظم منه. وهكذا تصاعدا في التشكيل والتبعية إلى ما شاء الله.

وبدءًا بالذرة، وانتهاء بأعظم تشكيل مجري، الكل في حركة مستمرة في فلكه الذي رسم له، إلكترونات تدور في مجالها المحدد لها حول نواتها، وأقمار تدور في أفلاكها المحددة لها حول كواكبها، وكواكب تدور في أفلاكها المحددة لها حول شمسها، وشمس تدور في فلكها حول محور مجرتها، ومجرة في فلكها تدور حول محور تشكيلها المجري، وتشكيلها المجري في فلكه يدور حول محور التشكيل المجري الأعظم المنجذب له.. وهكذا.

والأدهش من كل هذا، فإن جميع ما في الكون مندفع بسرعة خارقة نحو المحيط الظاهري مما يباعد بصفة مستمرة بين محتويات هذا الكون، دون تعطيل لسننه أو للجاذبية بين محتوياته، ودون انتهاء لهذا الاندفاع، مما يؤكد اللانهاية لهذا الكون العظيم.

وإنه لبرهان على أن منظم الكون، إله واحد. وأن له من القدرة العلمية الخارقة، بحيث أخضع هذا الكون جميعه ما دنا منه وما عظم، لنظام واحد، وحركة متقنة، على خط مرسوم لا يتجاوزه متحرك في حركته. لعلمه سبحانه أن التجاوز فيه الدمار.

فسبحان المنظم، الذي رسم الأفلاك للجميع، ووسع كونه اندفاع الجميع عليها بسرعة تفوق التصور ومنذ الأزل، ولا تزال مندفعة نحو المحيط، ومع هذا، لم تصل. وهيهات أن تصل، إلا أن يشاء الله، والله واسع عليم.

٣ - تشابه منحنى التكوين للجميع، فالنجم يولد من تجمع غازي، تنتابه أدوار مختلفة. بحيث يبدأ في التكاثف ليزداد احترارا، فيزداد تألقا، ثم يزداد كثافة لتشتد حرارته، فيزداد اشتعالا، وبالتالي تألقا،... وهكذا صعودا في القوة، فتنبثق منه كواكبه، ومن كواكبه أقمارها ثم تأخذ حرارته في الهبوط، وتزداد كثافته لينحدر إلى نهائيته، فيصل لغاية البرودة وأقصى الكثافة، بحيث يزن ملء الملعقة منه، بضعة أطنان ! فيعد ميتا في فلكه. (وليتذكر القارئ أن الله قد ذكر الحاصب في القرآن. وقد فسر العلماء الحاصب بأنه حصاة غاية في الصغر تنزل على المرء المحصوب فتخترق رأسه لتخرج من دبره. فهل هناك عجب الآن ما دامت توجد في الكون هذه المادة؟! وهل يعجز من أوجد عن استعمال ما أوجد؟).

قلنا: إن النجم قد سار على منحنى الحياة من النشأة إلى الفتوة إلى الممات. وكذلك الحال بكل الموجودات. ومثال على هذا، الإنسان فهو يتكون من حيوان منوي، وبويضة اختلطا وتعرضا لأدوار مختلفة، انتهت بطفل يزداد نماء، فيصبح وليدا، ففتى، فشابا، فرجلا، ينبثق منه أولاده، ومن أولاده أحفاده، ثم ينحني مع منحنى الحياة فيصبح شيخًا هرمًا،

وتنتهي منه الحياة ويذوي في رمسه، كما ذوى النجم في فلكه.

وإذا نظرت إلى أي شيء قابل للنماء والتشكيل، رأيته يلتزم بهذا المنحنى، بداية ونهاية، وهذا برهان على أن الملزم للموجودات بأن تسير على هذا المنحنى هو إله واحد أخضع كل شيء لإرادته نشأة وزوالا.

٤ - خلق المخلوقات بأسلوب واحد، هو الرتق والفتق، فالدخان الكوني كما يقول القرآن، أو السحاب الكوني كما يقول العلم، يتجمع في أدوار عدة ليرتق مع بضعه، مشكلا كتلة واحدة تزداد طاقتها في النهاية، فتتفتق إلى أجزاء، وهذه الأجزاء يعاود كل منها التجمع مع ما حوله فيتم لها الرتق، فتصبح نجما تزداد طاقته وحرارته لاندماج تشكيله وازدياد كثافته، فتتفتق منه كواكبه، التي تتفتق منها بعد حين أقمارها.

وهكذا كل شيء قابل للتكاثر والتعدد، فالنبات، يتجمع غبار التلقيح والبويضة، فتتكون الخلية، التي تتكاثر وهي رقتا مع أمها بالحبل السري، ثم تفتق الثمرة عند نضجها عن أمها النبتة، لتكون نباتا آخر، أساسه الرتق والفتق. وكذلك الحيوان. حيوان منوي، وبويضة، تجمعا ورتقا بالمشيمة الحبل السُّري، وبعد انتهاء مدة الحمل، ينتهي الرتق، ويحل الفتق، فيولد ليسير على منحنى الحياة، فتنشأ عنه أجيال بالرتق والفتق، إلى ما شاء الله.

ونماء الكون بموجوداته جميعا، طبقا لقاعدة واحدة هي الرتق والفتق، أو الانجذاب والطرد، دليل قاطع على أن الخالق واحد، قادر بقاعدة علمية واحدة أن ينشئ كل شيء، مع اختلاف أجناسه.

٥ - الكون وحده واحدة، بكل موجوداته، ومترابط ترابطا مصيريا، فلا حياة مثلا على الأرض، لولا حرارة الشمس. لا بل إن الحياة لتزول لو زالت الأشعة الحمراء من طيف ضوء الشمس، أو زال اللون الأخضر!! لأن بزوال أحدهما، يزول النبات، فتزول بقية أحياء الأرض،

من الحيوانات والحشرات.

دع هذا، وأزل الأكسجين من الأرض، تجد أن الحياة تنتهي في دقائق معدودة، وتجف كل قطرة ماء في الوجود، ويرتفع الأيدروجين في جو الأرض ولا ندري ما الذي يحدث للكرة الأرضية لو حدث هذا.

تَقَصَّ ما شاء لك التقصي وحدات هذا الوجود وعناصره، تجد أنه مرتبط بعروة وثقى، لا انفصام لها، لأنه لو زال أبسط عناصرها، لزالت من الوجود جميعا.

وإنه لبرهان على أن من وحده وربطه بهذا الرباط المصيري، لهو إله واحد أحاط بكل شيء علما.

٦ - لكل شيء ذاته فأي مخلوق يمكن تمييزه من أبناء جنسه، بل إن أي ثمرة، كالتفاح مثلا. لو أخذت ثمرة من ثمره، وحددت مميزاتها شكلا ولونا ووزنا... إلخ، ثم وضعت بين بضع حبات أخرى، لأمكنك التعرف عليها، مهما كررت التجربة، لأنه لكل حبة ذاتها، وهكذا بقية المخلوقات، لكل ذاته.

خذ بضع حصيات من الأرض، وتفرسها ودقق النظر فيها، تجد أن لكل حصاة ذاتها!

ألا إن من جعل لكل شيء ذاته المنفرد بها عما سواه من جنسه، لهو أجدر بالوحدانية والانفراد بذاته التي لا مثيل لها.

٧ - وحدة الغرائز كالجوع والجنس والنوم، وتكامل الطبيعة وتآزرها في الحيوان والنبات، كأن يعتمد الحيوان على الأكسجين، ويعتمد النبات على ثاني أكسيد الكربون، وأن كليهما يتكفل لصاحبه بتوفير أهم عناصر حياته له مقايضة. والأصل في الأكسجين، الماء الذي يختزله النبات، ليحصل منه على الأيدروجين ويطرد الأكسجين، للحيوان الذي يبقى

منتظرا أيضا للنبات ريثما ينزع له من الأرض عناصرها اللازمة ليفيد منها بناء لجسمه وطاقة لحركته، ثم يعيدها للأرض عن طريق البكتريا ليُبنى بها نباتٌ جديدٌ يكون غذاء جديدا للحيوان.. وهكذا تستمر دورة العناصر لتستمر الحياة. فتبارك الله أحسن الخالقين.

ألا إن هذه الوحدة في الغرائز والطبائع والتكامل، لإبقاء شعلة الحياة مشتعلة، لدليل قاطع على أن رب هذه المخلوقات واحد. لأن الحياة التي تسير على طبيعة واحدة، تشهد بهذا. إذ لو لم يكن إلها واحدا، لانفصمت عرى الحياة، أي بمعنى أنه لو كان فيها إله مع الله، لبغى أحدهما على الآخر واستولى على معظم الكون. ولو فرضنا جدلا أن المغلوب على أمره، لم يبق له إلا عنصر واحد، كالهليوم أو الأيدروجين، فهل ستكون هناك نجوم في هذا الكون؟؟ وبالتالي هل ستكون هناك حياة ؟ ! كلا وألف كلا. ولنفرض أن المغلوب على أمره لم يحصل إلا على سبع ضوء الشمس، والباقي في الأرض على جلاله، يبقى ملكا للإله الأعظم، فهل إذا حجب المغلوب جزأه البسيط هذا، وليكن اللون الأحمر مثلا، فهل ستبقى على الأرض حياة تستحق الاهتمام؟!.

من هذا يتضح لنا أن هناك إلها واحدا منزها عن الشرك، بدلالة هذا الكون وما فيه، وما فيه يجل عن الحصر أو الوصف، والذي يشهد استمراره على سنن ثابتة، لا تتبدل ولا تتغير، بأن وجوده منذ القدم، وإلى ما شاء الله، منبثق عن إرادة إله واحد لا شريك له.

هذا هو ملخص الشطر الأول أو الشاهد الأول المتمثل في بحثنا في هذا الكون العظيم، الزاخر بالآيات المنظورة، الناطقة بأن من أوجده هو رب عظيم، يتصف بالإرادة والعلم والقدرة والإبداع، والسعة والديمومة.

أما ملخص الشطر الثاني من بحثنا، أو الشاهد الثاني، فإنه يتمثل في

الرسالة الكريمة والرسول الأمين. الرسالة التي جاء بها رجل أمي فأعجزت أرباب العلم، بإعجاز معناها المتسامي عما يخطر ببال البشر من معان، وبإعجاز مبناها اللغوي، الفريد في بلاغته التي أقر بها أضلع العرب في اللغة بلاغة وفصاحة، بأن ما جاء به محمد ليس بقول البشر.

كما أنها تتصف بأصالة الإعجاز الذي أهَّلها لأن تكون خاتمة الرسالات، لأنها كلما تقدم العلم، كلما وضح مضمون آياتها للدارسين. فها نحن اليوم قد وقفنا على بعض إعجازها العلمي. فقد قررت بعض الآيات أن الأرض بيضاوية الشكل. لقوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾.

وقررت أن الأرض في فضاء، لقوله: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [النحل: ١٥].

وقررت أن الأرض تسبح في هذا الفضاء، لقوله: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ .... ﴾ [النمل: ٨٨].

وقررت أن الأرض كانت جزءا مما يعلوها ثم فصلت، لقوله: ﴿ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وقرر العلم أن التكوينات الكونية أصلها من سحاب كوني وذكر القرآن أن السماء كانت دخانا لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١].

ومنتهى الإعجاز أن يتلو هذا القول الكريم المعجز معنى وبلاغة وتنبؤًا وعلما، رجل أمي لم يوصف منذ نشأته إلا بالصادق الأمين. يقوله مباشرة بعد نزول الوحي عليه، وهو بينهم، فيجهده ذلك بحيث يتنزى عرقا لشدة

غمرة الوحي له، وما أن يسري عنه ويعتدل في جلسته كما كان بينهم، إلا ويتلو عليهم كلام الله الذي تلقاه لتوه وهم من حوله يشهدون حاله الناطقة بالصدق المبين، فيكتب كتاب الوحي ما نزل من قول كله الهدى، ويحفظه المعنيون بحفظه.

إن هذا المشهد الحقَّ الذي يحدث بين أيديهم، وشريف القول الذي يتلى عليهم إثر كل حدث من هذا القبيل، وتخلقه بما نزل عليه من قول كريم، كان من أقوى الأسباب لأن يتبعه التابعون ويثبتوا حتى الموت، على ما آمنوا به، ويستبدلوا ثراءهم بالفقر المدقع بإنفاق أموالهم في سبيل الله ورسالته ويؤثروا الهجرة على الاستقرار في النعيم بين الحلائل والبنين.

هذان هما شاهد الحق الجديران بالتفكير والتدبر:

كون عظيم فيه آيات بينات منظورة، ترتفع منارات نيرة على جانب الطريق إلى الله.

وكتاب عظيم فيه آيات بينات منثورة ترتفع منارات نيرة على الجانب الآخر للطريق إلى الله، بحيث لا يضل ساع إلى رحابه.

فهل من راغب في الهدى، بالسير على الطريق إلى الله؟؟

إلى هؤلاء الأخوة البررة الذي يؤمنون بأن لهذا الوجود إلها واحدا لا شريك له، وأنه كما جاء في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص] إلى هؤلاء، أتقدم بالملحق الآتي كنبذة موجزة عن بعض أهداف الدعوة الإسلامية وما ترمي إليه، كخاتمة المطاف لهذا البحث الذي حاولت التدليل فيه على وحدانية الله وعظمته، وصدق الرسالة الإسلامية، ورسولها الكريم، مستشهدا ببعض الآيات التي ينطق بها هذا الوجود، وبعض آيات كتاب الله التي تشهد بأنه رسالة معجزة، واستشهدت كذلك بأحوال رسول الله،

وواقع حياته المعلومة للجميع ممن عرفوه، والتي كانت تمثل غرة الصدق، وذروة الأمانة، مما أعانه على توضيح رسالته وإيداعها ضمائر الذين قيض الله لهم التوفيق، وآثرهم بالهدى وعلم اليقين.

«ليس الإيمان بالتمني، ولكنه ما وقر في القلب، وصدقه العمل، ألا وإن قوما قد غرتهم أماني المغفرة، فخرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم. قالوا: نحسن الظن بالله. وكذبوا. لو أحسنوا الظن بالله لأحسنوا العمل»

حديث شريف

نبذة عن الدعوة الإسلامية وبعض أهدافها

الإسلام هو دين الفطرة السليمة، ينسجم معها فلا يقتل فيها الحيوية أو يعنتها. لأن الذي شرعه، هو الحكيم الخبير بما أودع في الإنسان من غرائز وقدرات، ولهذا لم يكلفه ما لا طاقة له به ولم يتركه هملا دون تكليف أو تعلية لهذه الغرائز التي هي تيار الحياة الدافق كالنهر الهادر، الذي لا تكتمل الفائدة منه إلا بالسيطرة عليه، ولا تؤمن الحياة من شرور طوفانه إلا بتنظيمه وتهذيبه، دون التعرض لحبسه، لأن حبسه معناه أن ينفجر فيجرف ما أمامه ويدمره.

ولذلك جاء الإسلام باليسرى، مبتدئا بالخفيف إلى كمال التكليف، وأقام قواعده في حدود طاقة الإنسان، وأمره بالاعتدال، فلا يهمل واجبا، ولا يشطط بحيث ينغمس في شئونه الحياتية دون الالتفات لعبادة ربه أو الاهتمام بمجتمعه، أو يغالي في عبادته، بحيث يجعلها كهنوتية ورهبنة، ينقطع بها عن الدنيا، فيعيق الجماعة عن تقدمها ونهضتها بحرمانها من جهده الذي هو جزء من جهود أبنائها، فتتحول الأمة إلى عجزة لا حول لهم ولا قوة، بل أذلاء تستعبدهم الأمم الأخرى وتستذلهم.

لا ! لا هذه، ولا تلك، بل بين ذلك قواما.

والإسلام بطبيعته دين حياة وعمل، دين علم يعمل به، لا ليتشدق به. ولذلك نزل في ثلاث وعشرين سنة كي يعطي للمرضيين الأول الفرصة ليحيلوا ما يتلى عليهم من آي الذكر الحكيم إلى مناهج عمل وقواعد أخلاق، يلزمون بها أنفسهم. لعلمهم أن الإيمان هو ما وقر في القلب

وصدقه العمل. ولذلك كان الواحد منهم يتجشم عناء السفر، ليقف على معنى آية التبس عليه ما ترمي إليه. لأنه يريدها نبضة تعطي الحياة دفعة، وومضة تضيء له الطريق.

أما أن تكون أواني جوفاء، لا تحتوي على ما يقيم لجائع أودا، أو ما يبل لظامئ كبدا فإنها طريقة لا يريدها، لأنها تتنافى ومبدأ المؤمنين الذين يعلمون أن رسالة الإسلام رسالة العلم والتعلم، واتخاذ ما تعلموه أداة خلق وإبداع، يدفع بهم للترقي في مدارج الحياة، لا علما موؤودا، أو حبيس الرءوس العاجزة عن التطبيق، فيصبح لا حظ له إلا أن يلاك باللسان. وهو أمر يمقته الله ولا يرضاه لعباده المؤمنين، فحذرهم منه بقوله الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣].

نعم، إن كلمات الله قد جاءت لتكون منبع إلهام يسترشد بها الراغبون في العلم فيحيلونها غذاء لأرواحهم، وروحا وقواما لحياتهم، وحافزا يدفعهم للكمال، فإن لم يفعلوا، فقد وأدوا الأمانة وعطلوا الرسالة، وأضلوا أنفسهم ضلالا بعيدا، وأصبح ما عقلوه حجة عليهم لا حجة لهم.

وضمانا لإقامة مجتمع الإسلام على أسس راسية صلبة، وإقامة بنيانه من لبنات منتقاة لا تفضي إلى ثغرة فيه، مهما اعتراها، فإنه قد أولى الفرد عنايته بمخاطبة عقله وضميره كي يصل به إلى معرفة ربه يقينا، فيدرك أن

العزة والكبرياء في السموات والأرض لله، وأنه أهل لأن يخبت له. وأن طأطأه الهامة ذلا لسواه هي مرحلة من مراحل الشرك به وثغرة خطيرة في العقيدة.

وعند إدراك المرء إدراكا حقيقيا لمعنى وحدانية الله، يصبح أهلا لأن يكون أحد أعمدة الإسلام التي يشاد عليها صرحه، وإحدى مناراته التي ترشد للطريق السوي من مكان بعيد.

أما الخطوة الثانية فهي تجميع هذه القواعد المتينة واللبنات المنتقاة، وربطها برباط الرحمة والود، النابع من قدسية الأخوة في الله، التي لا تدانيها أخوة بحيث تصبح وحدة واحدة تتجه إلى الله خمس مرات في اليوم، متمثلة في الصلاة التي تتيح للمرء غسل ضميره يوميا، مما يلحق به من قتار الحياة، ويتفحص خطاه، ليعدل مسيرته على الصراط المستقيم إن وجدها قد جافته، ويختبر أهليته يوميا لهذا الدين الحنيف.

وكما أن الصلاة خشوع تستلهم به الهدى من الله، فإنها لقاء مع الإخوة الذين جمعتهم كلمة الله، فتقف على أحوالهم الخاصة والعامة وهم على أحوالك يقفون.

ولما كان هذا اللقاء لقاء المؤمنين بالله، فإن نتائجه ستعود بالخير على الجميع. إذ لا يعقل أن يهمل أخ مؤمن، أمر أخيه، ولا أن يتنكر أخ مؤمن لأخ أحسن إليه. الأمر الذي يهيئ لهم مجتمعا مثاليًّا، ينتهي تلقائيا بالفرد إلى الذوبان فيه، والتفاني في سبيله حتى أنك لتراهم في توادهم وتراحمهم كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر

والحمى، أجنحتهم مخفوضة فيما بينهم، لفيض الود والرحمة المترعة به قلوبهم العامرة بالله، الواثقة بعباده المؤمنين.

ثم توج هذا بأمرين مهمين في حياة المسلم. الصيام، ليضع به الضوابط لإرادته، فيروض الوحشي من نوازعه؛ النفس والهوى. والزكاة، ليطهره من البخل، وليبرهن عمليا على تضامنه مع مجتمعه، وحث المسلمين ورغبهم في المزيد من السير على هذين الطريقين (الصيام والزكاة)، لمن أراد نافلة وتقربا إلى الله، يكسبه قوة الإرادة وبسطة اليد، فيباعد بينه وبين الخنا والشح.

والإسلام حرب على النفاق والرياء، ويعتبرهما عاملي هدم للعقيدة، وفصم لعرى المجتمع، ومفسدة إذا فشت، عطلت المبادئ وزعزعت الثقة وجلبت الخراب لأن النفاق كالداء الدفين، يصعب تشخيصه، وبالتالي يصعب علاجه، أو هو كما يقول المثل: كلص الدار، يحتار الحراس فيه.

وتتم أسس الإسلام الخمس، بالحج الذي يعتبر مؤتمرا دوريا كل عام للمسلمين، يتوافدون فيه من شتى الأقطار سعيا لمرضاة الله، ولقاء مع إخوتهم فيه، على مستوى أوسع وأعم من لقاءاتهم المحلية، المتمثلة في الصلوات اليومية، والأعياد والمناسبات الدينية الأخرى، ولذلك تتاح لهم الفرصة لتبادل الآراء، وتحديد المواقف، بما يعود على أمتهم بالمنعة والعزة.

هذه نبذة عن أركان الإسلام الخمس، التي من أقامها فقد أقامه، ومن هدمها فقد هدمه، لأنها أركان أساسية، تأديتها بحق تحقق للمرء

ارتباطا بالله، لا تفصم عراه؛ لأنها توجه بالقلب إليه، وبذل للمال والجاه والجهد في سبيله. مما يحقق للأمة مجتمعا راسخ البنيان، رشيد الخطا، بهدي كتاب الله وسنة رسوله.

وللإسلام طرقه التي لا تدانى، في تربية أبنائه، فهو يأخذهم على الطريق، بقدر جهدهم كما قلنا، فيبدأ بالخفيف، متدرجا إلى كمال التكليف، وبيان ذلك، أنه عند بدء الرسالة لم يكلفهم بالعبادات، إلا بعد أن غرس في قلوبهم عقيدة التوحيد، وأرسى قواعدها بالأدلة القاطعة التي أوصلتهم إلى الإيمان بالله يقينا، فقويت إرادتهم، ونشطت هممهم لتقبل التكليف، وتنفيذه بإخلاص إلى الله ورسوله والمؤمنين، (وليحرص الآباء والمربون والمرشدون على ترسم هذا الأسلوب الإسلامي الفذ في التربية).

ولما كان الإسلام في أول أمره وليدا في ديار الكفر، ويتربص به أهلها ريب المنون، فلابد من درع واق، يدرأ عنه كيدهم حتى يكتمل سنا ضوئه، فيهتدي به هؤلاء القوم الذين ألحت عليهم جهالتهم، أن ينبذوا ما جاءهم من هدى يزكيهم ويسعد بالهم.

وهذا الدرع هو الثلة المؤمنة الأولى، والتي كانت في تقدير الله سبحانه وتعالى أهلا لأن تكون حصن الرسالة المتين، وأن ستقوم دولتها على أكتافهم، مما يحتم تنقيتهم بفرز من صاغته مصاهر العذاب والآلام، فخلصت نفوسهم من أهوائها القديمة، وأصبحت طبقا لما جاء به رسول الله.

أما وسائل الفرز هذه، فهي عديدة ومتدرجة، أدناها محاربة الباطل ومساندة الحق بالكلمة، وذروتها حب الموت في سبيل الله أكثر من حب

الحياة، وبين هاتين الدرجتين، درجات عدة، منها الصيام والقيام والصدقات تطوعا، وشتى أعمال البر، ومنها أن يصل المؤمن من جراء تتابع البراهين، إلى التصديق بما ينزل على نبيه، وإن حجبت عنه البراهين لأنه أصبح لا حاجة له بها.

وقد كان الإسراء والمعراج، إحدى الوسائل التي تكفل ذلك، لتنقطع الحبال الواهية بأهلها، ويبقى في ساحة الإسلام من ثبت يقينه، يؤمن بالله ورسوله بمجرد سماعه للنبأ من الرسول. لأن الرسول قد تجاوز التجربة إلى البينة، والمظنة إلى اليقين، ولأنه لا مجال لأن تقاس الآيات بعقل السامع المؤمن، الذي يفترض فيه أن قد تمت قناعته، بما سبق من براهين الصدق، التي أعطته اليقين بأن لله قدرة مطلقة، ووسائل يعجز العقل البشري عن استيعابها أو تصورها، فكيف يشك في رحلة كهذه ؟!.

والرسالة الإسلامية جاءت خاتمة الرسالات، والرسول خاتم المرسلين، لا لغضب من الله على عباده وإهمال لهم، فحاشاه أن يهمل مما خلق شيئا، بل لأنها رسالة جامعة تحمل مسببات البقاء والاستمرار، ومبنية على براهين ثابتة، وعلم معجز، توالى الأجيال الوقوف على المزيد من أسراره بتوالي تقدم العلم.

فرسالة كهذه، لا يفترض فيها أن تأتي مفصلة بأحكام على عقلية أولئك القوم، بحيث يصبح كل ما لا تدركه عقولهم، هو خرف لا يؤبه به !! بل يفترض فيها، أن تكون أهلا لأن تبقى الرسالة الخالدة، المتجددة مع الأيام وأن يكون ما كبر منها، على عقل جيل من أهلها، هو برهان اليقين

للأجيال التي تليه، لاستطاعة تلك الأجيال إدراك مضمون آيات عجزت عقول أسلافهم عن إدراكها. وذلك لتقدم علم هذه الأجيال.

ومثال على ذلك! الإسراء والمعراج كما قلنا، فإنه يوم حدث كان يصعب على العقل البشري أن يعقله. لأنه عقل كانت وسيلته للتنقل الدواب برا، والسفن الشراعية بحرا، وكلها لا تعطي تصورا لسرعة خارقة.

لكن عقولنا حاليا أقرب لاستيعاب تلك الرحلة، لوقوفنا على تجارب علمية متقدمة في حقل المواصلات، وصلت عندنا لدرجة البديهيات، وهي عند أسلافنا تعد من الخوارق التي لا يصدقها عقل. ولا بد أن يأتي على البشرية يوم تكتشف فيه آيات من هذا الكتاب، تكون وفق الحقيقة التي يلمسونها آنذاك، وهي الآن عندنا، خارج نطاق إدراكنا الذي سبق أن مثلنا لعجزه عن استيعاب سر صنعة أحفاده واستهجانه أمرها.

وما دام حظ الناس من إدراك الحقائق هكذا، فحري بهم ألا يحيطوا بسر واقعة الإسراء والمعراج التي هي من أسرار صنعة من خلق الأحفاد والأجداد، والذي شاءت إرادته أن يمرر طلائع المستجيبين للدعوة في تجربة من هذا القبيل، ليعلم المؤمنون واقعهم وحقيقة أمرهم، ويذهب غثاء هذا التجمع.

وقد كانت النتيجة مذهلة.. إذ تساقط ضعاف الإيمان وثبت أقوياؤه الذين ساروا بالإسلام شوطا أجلسه على عرش الدنيا، وملك نياط قلوب أهلها بنوره الوضاء الذي لا يضل معه أحد.

ولو بقيت الجماعة دون تنقية، لبدأت المسيرة بشوائبها التي لا يكفل

معها رسوخ العقيدة والثبات عند الزلزلة. ولكانت جماعة واهية تفت في عضد المخلصين، وتدفع بالأبطال إلى المجازر، وتولى عنهم يوم يمتحن ثبات الرجال، وأصالة ما انطوت عليه ضمائرهم، ولكانت مصيبة الردة أعظم يوم وفاة رسول الله ﷺ.

وربما كان للمرتدين الفوز، لانحياز الجموع الغثة لهم، لأنها جموع تكون قد حسبت على الإسلام، وهي ليست من أهله إلا نفاقا، أو يشدها إليه رباط واه يجعلها عالة عليه، وفتا في عضده، لأن إيمانهم كان على حرف، يحتاجون معه لمزيد من الروية ليعلموا أنه الحق.

لكن من أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، تولى الذين استجابوا للدعوة بشتى الطرق، ليفرز منهم صفوتهم، فكانت تلك الآلاف المؤلفة من الذين باعوا أنفسهم لله، وجعلوا منها قربانا تفتدى به كلمته. فدخلوا مكة، ليعيدوا للبيت العتيق طهره وقدسيته بذكر الله فيه دون سواه.

وانطلقوا يحملون بشرى الرسالة لأرجاء الجزيرة، حتى جعلوا من أهلها أمة واحدة، التقت على كلمة التقوى نقية الضمير، صادقة العزم والبذل في سبيل الله، فتم لها التماسك الذي شيدوا به مجتمعا كتبت له المنعة والبقاء، لأنه بني على أصالة الوحدة التي تضيء طريقها الشريعة الغراء. فأبدل الله خوفهم أمنا، وعسرهم رخاء، فقرت أعينهم بدينها ورزقها، واثقة أن الأمل محقق. لأنه إن كبا على الأرض، فلن يكبو في السماء.. فأقدموا على الحياة بحوافز بناءة، أضفت خضرة الحياة على ما أنبتوا، فتفيئوا ظلاله وجنوا ثماره، آمنين مستقرين مما ترى معه سماحة الإيمان وآثار

نعمه إشراقة على سيماهم، وترى الأخوة الحقة، مبدأ الجميع لأن الرسول ذا الخلق العظيم، علمهم أن جهاد النفس هو الجهاد الأكبر، وعلمهم أن التواضع زينة المؤمنين.

وكان لا يأمرهم بشيء إلا وكان أحرصهم على عمله والتمسك به لأنه المثل الأعلى والقدوة الحسنة لهم، فقد كان لين العشرة، حلو الرفقة، يخدم نفسه ويعين أهله، رحيم متواضع، يهتم بالناس، والشورى مبدأه ويكره أن يقام له، ويجلس حيث ينتهي به المقام. يؤاكل خادمه، ولا يتميز عنه بطعام، يعمل مع الجماعة ويكره أن يميز عنهم.

فتخرج أصحابه على يديه سادة مبادئ، حربا على ما يشوب النفس أو المجتمع، من شوائب لا تتفق وأدب الدين الحنيف، حتى أن عمر ﷺ عندما كان يذكر قصة بلال ﷺ كان يقول: (أعتق سيدنا أبو بكر، سيدنا بلال، بعد أن اشتراه من سيده، الذي كان يسومه سوء العذاب).

ومن يعرف شيئا عن هيبة عمر التي لا يقوى كثير من الرجال على الصمود أمامها، يدرك الأثر الفعال لهذا الدين بالنفوس، فقد جعل عمر يقر بأن بلالا مملوك أمية بن خلف، سيده، وجعل عمر عندما حدثته نفسه يوما بأنه أمير المؤمنين، وشعر بعزة الملك، يعمد لردع نفسه والتمريغ بها على ملأ من المؤمنين بقوله: (كنت أرعى الغنم لخالاتي، وعندما أروح مساء، يعطينني قبضات تمر أتبلغ بها، وهأنذا لا يعلوني إلا الله)، فقال له أحد السامعين: لقد أهنت نفسك بما قلت يا أمير المؤمنين، فقال ما معناه: (إن نَزَغها من الشيطان نزغ خزمناها بوازع يخبتها إلى الله ويريها الطريق

المستقيم، لتستقيم عليه).

بهذه الأخلاق العالية، وبهذه الأخوة الصادقة، استطاع أولئك البررة تحقيق السلامة والنجاح لدين الله، وحفظه من الانهيار في أرض الشرك السبخة الموحلة، التي جندت كل طاقتها لتقليص ظله، ووأده في مهده، فتصدى لهم رسول الله والذين آمنوا معه، بالبيان، راجين أن يكون لنوره الأثر الفعال في هدايتهم بإزالة الغشاوة عن أبصارهم وفك أقفال بصيرتهم.

لكن من مردوا على الجور والكفر، لم يزدهم البيان الحق إلا عتوًّا ونفورا، فعقدوا الخناصر على الفتك برسول الله لنقض بنيان الرسالة من أساسه، فأمر صلوات الله وسلامه عليه بالهجرة، لتنبت غرسة الإسلام في البيئة والمناخ الصالحين، بمنأى عمن أرادوا اجتثاثها غضة، لم تستو على سوقها بعد.

ولما ثبت أصلها، وأظل يثرب فرعها، أغاظ ذلك أهل مكة ورأوا أن الدعوة قد استفحلت، وأصبحت خطرًا عليهم؛ لأنها تزداد مع الأيام انتشارا ومنعة. فجمعوا كيدهم، وجاءوا صفا يدفعه البغي، ويقوده الحقد، ليفتكوا بمن ترك لهم الديار، حرصا على دينه! فتجاوز البغاة بهذا الحدود، فأمر الله رسوله بالجهاد، وتحريض المؤمنين على القتال والثبات عليه حتى النصر أو الاستشهاد، فكانوا أثبت خلق الله يوم الهلع، وأشجعهم يوم اللقاء، لأنهم يعلمون إنما يفعلون ذلك لمرضاة ربهم، وتحقيقا لرسالته المأمورون بإنفاذها، وإرساء قواعدها بالجهاد بيانا، لمن جنح للعقل والمنطق، وسنانا، لحمايتها ممن شط به الهوى، فاتخذ العدوان مركبا.

أما الجهاد الذي يرى فيه المغرضون مغمزا على رسالة الإسلام، لأنهم يفكرون بعقلية خوارة مبتورة الصلة بالرسالات السابقة، وبالتالي لا علم لهم بما تعرضت له تلك الرسالات والمرسلون، فإن الله قد فرضه على المسلمين، لأن رسالتهم جزء لا يتجزأ من تلك الرسالات، وهو أدرى بما فعل السابقون بأنبياء تلك الرسالات.

فإبراهيم عليه السلام، قذفوا به في النار، فأنجاه الله منها، ليتحقق الهدى للبشرية على يد كرام الرسل من ذريته، وحرقوا الأتقياء في الأخدود، وربطوا المؤمنين في الأوتاد حتى الموت، وجروا رسول السماحة والرحمة، المسيح عليه السلام على الشوك، واختتموا جورهم عليه، بإقامة المشنقة له ليصلبوه، ولم يشفع له عديد الآيات الجليلة التي جاء بها، فرفعه الله تبكيتا لهم وتكريما له.

والإسلام وإن جاء متماثلا مع الرسالات السابقة في الأسس ومتمما لها فيه الهدف، فإن له آياته الكفيلة ببيانه، لمن أراد فهما وبيانا، وله الحماية بالمؤمنين ضد من يريد فصما لعروته أو نقضا لبنيانه. إذ ما العمل فيمن أراد أن يبقي على الحجر ربا، والبغي مسلكا، والربا رزقا، وقوة السيف يحكمها في رقاب الناصحين له، الراغبين في تزكيته؟؟ ألا يجاهد المعتدون ما داموا لم يرعووا ولم يستمعوا لوازع العقل، بعد أن عقلوا الأمر الجليل الذي جاءهم بيانه؟ مع أن رسول الله قد صبر على تجاوزهم الذي وصل إلى تغطيته بسلى الجزور، ووطء عنقه (أعز الله مقامه)، وهو ساجد بين يدي ربه، ولم يقل إثر كل حادثة إلا خيرا لثلاثة عشر عاما من العنت والعذاب له ولأصحابه،

ولما تركوا لهم الديار، لم يكتفوا بهذا، بل أخذوا يغزونهم في مهاجرهم!!

ألا إن الجهاد حق لأهل الحق، لأنهم أولى بالبقاء من أهل الضلال. وألا حرمة لمعتد، إلا في عرف الأذلاء.. ولا يليق بمؤمن أن يكون ذليلا.

ولا يفوتني أن أنوه بالخطوتين العريضتين في مسيرة الإسلام:

١ - هجرة وضعت حصيلة ثلاث عشرة سنة من المؤمنين في المحك لينشطروا إلى شطرين: شطر آثر الله ورسوله على المال والولد، فاختار الهجرة على المقام لينضم إلى معسكر المؤمنين في المدينة المنورة، وشطر أملت عليه ظروفه مقاما إلى حين، أو مقاما لا انفكاك منه إلا أن تحين فرص هو أحرص الناس على اغتنامها.

وبهذا تم فرز القادرين على العمل لإعلاء كلمة الله، بهذه الهجرة التي لا تعد تولية دبر وفرارا، وإنما تضحية في سبيل الله وتحيزا إلى فئة آمنت به، ليتم بناء قاعدة الإسلام الأولى، بل قلعته التي تحميه، وتتيح له حرية التفكير والتدبير، وليتفاعل هذا المجتمع في وضح النهار، لا مواربة ولا تمويها خشية الرقباء — أعين الكفر — الذين يترصدونهم ويتربصون بهم في حواري مكة ونجوعها.

٢ - جهاد في سبيل الله بالمال والنفس، وهو ذروة العقبات التي يعد اقتحامها شهادة بأن صاحبها قد خلص لله من كل شائبة، وأنه أهل لأن يسهم في رفع قواعد الإسلام، بالدعوة إلى سبيل الله، بالحكمة والموعظة الحسنة التي تأخذ بيد الإنسان برفق لتهديه سواء السبيل.

وأهل لأن يمحق الله به الباطل. ويحق به الحق، لأنه من جند الله الذين

صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وما بدلوا تبديلا، فأثابهم نصرا أتاح لهم أن يكونوا إشراقة الهدى في مشارق الأرض ومغاربها. فأفادت منهم الإنسانية، ونقلت عنهم ما نرى آثاره فيما تنعم به من حضارة وعلوم متقدمة.

والمتتبع لتأريخ هذه الأمة يجد أن وفرة حظها في الدنيا، وجليل قدرها بين الأمم، يتحققان ما دامت حريصة على تعاليم هذه الرسالة الجامعة لكل فضيلة، والتي ما ضل جيل اتخذها حافزه ورائده. لأنها رسالة تضع الحلول الجذرية للقضايا، ولا تركن للعلاج السطحي، ولهذا فهي تعمد للأمة بدءا من اللب المتمثل في ضمير الفرد وعقله، فضميره تتولاه بتعاليمها الروحية ليرتفع عن بهيميته بالقدر الذي يؤكد إنسانيته ويؤصلها خشية النكوص، وعقله تحثه على اكتساب العلم والخبرات التي تؤهله لأن يكون سيد عصره. لأنها تعتبر طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، وانتجاع مصادره من أوجب الواجبات، مهما بعدت الديار، وهي تأمرهم أن يعدوا لأعدائهم ما استطاعوا من قوة، يرهبون بها عدو الله وعدوهم وتحثهم على أن يحسن كل عامل عمله.

وبديهي ألا يكون إحسان في العمل ما لم يجد العلم ويحسن تطبيقه، وطبيعي ألا تتأتى لهم القوة المأمورون بإعدادها ما لم يكونوا سادة فنها وصناعتها وهذا لا يتحقق إلا إذا بزوا أهل عصرهم في الأخذ بأسبابها، علما وممارسة جادة.

كما أنها تعتبر وحدة الأمة أسمى أهدافها، وتعد الخارج عن الجماعة مارقا، ومن شذ عنها شذ في النار، وتحارب الشح والإسراف والتبذير.

وحرمان الأمة من أسباب طاقتها، بحجب القوت احتكارا، والمال اكتنازا، والربا تكسبا، أو استغلال حاجة الناس وعسرهم. ومن آياتها التي تؤكد ذلك:

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾ [الفرقان: ٦٧].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٩]

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ﴾ [الإسراء: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿ ...... يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

ورسالة الإسلام لم تأت حَجْراً على الناس أو تعطيلا لتفكيرهم أو إلغاء لشخصيتهم عند تدبير شؤونهم، وهذا هو السر في أنها تضع لهم الخطوط العريضة وتترك لهم التفاصيل... أو بمعنى آخر، أنها ترسم لهم حدود القضايا وأركانها وتطالبهم استشعار روح الرسالة في اجتهادهم دون

هدم للأركان أو تجاوزا للحدود.

ولذلك لم تضع رسالة الإسلام نظريات اقتصادية أو اجتماعية جامدة لأنها كما قلت، تتناول الأفراد عقلا وضميرا، بحيث يصبح الفرد وحدة ممتازة جديرة بالانضمام لباقي الوحدات لإقامة المجتمع الكامل المتكامل. ثم تترك لهذا المجتمع حرية التصرف، بروح الإسلام ضمن حدوده، عند علاجهم للقضية التي تملي عليهم ظروفهم أن يعالجوها وفق مصلحتهم. لأن الإسلام يعتبر أن ما يراه المؤمنون حسنا، فهو عند الله حسن.

وخلاصة القول، كتابنا الكريم، فيه جميع كليات القضايا التي تحتاجها البشرية في حياتها المادية والروحية. فمثلا: يورد قضية الحرب في حدودها الآتية ويترك لكل جيل أن يرسم خططه وفق ظروفه. ولكل قائد أن يرسم تكتيك معركته واستراتيجيتها وفق متطلبات المعركة.

والحدود هي:

١ - أن تعد جيوش المسلمين إعدادا قويا، وألا يُدخر جهد دون ذلك.

٢ - لا يترك مقاتل مكانه، إلا مهاجما أو مطاردا أو متحيزا لإحدى كتائبه، أي لا إدبار ولا فرار، بل ثبات حتى النصر أو الاستشهاد.

٣ - الحرب وسيلة لا غاية. وسيلة لإحقاق حق أو رد معتد، لا للفتك والتخريب والعدوان.

شروط ثلاثة كما ترى صالحة لكل مكان وزمان، فعلى من وكل لهم أمر جيوش المسلمين أن يترسموا هذه الحدود بروح الإسلام. ولهم بعد ذلك

مطلق الحرية في التفاصيل التي يمليها عليهم زمانهم. لأنه لكل جيل ظروفه ووسائله وعلومه.. بدءا بالسيف والفرس، وانتهاء بالصواريخ الذرية العابرة للقارات.

وهكذا بقية القضايا، فإن الإسلام يعالجها بهذا الأسلوب، حدود لا تتجاوز وحرية ضمنها لا تحد، لأنه يعتبر أمته أمة راشدة، تعرف خيرها من شرها، كما تعرف حدود ربها، وبالتالي لا ينتظر منه أن يحدد لها جزئيات تصرفها، كاجتهادها في تقنين وسائل عيشها ونظمها الاجتماعية، وعلاقتها مع الأمم الأخرى، ما دامت مترسمة لحدود الله والمصلحة العامة... كأن يملي عليها نظاما حياتيا محددا لا تبرحه ولا تفرط فيه. لأن الإسلام يقر التقدم والتجديد بل يحث عليه، لأنه لا يرضى لأمته الجمود، فيكون غدها كيومها، ويومها كأمسها، بل يريدهم أعزة في هذه الدنيا، يملكون رقبتها، لتعلو كلمة الله، لا أذلة يتركونها إهمالا ورعونة، مغلفين بزيف الترفع، وهما عنوان الجهل والخور والتخلف وقصر النظر، الذي يفقدهم أسباب القوة، فيهونون على الناس.. وبالتالي تهون كلمة الله، أو ترفع شعارا تصادقه الألسن وتهجره القلوب.

وكما أن الإسلام قد أتاح لأهله مطلق الحرية في تدبير شئونهم الحياتية دون تخط لما رسمته الشريعة الغراء، فإنه كذلك قد أتاح لهم حرية الفكر والجرأة الأدبية، ومعايشة قضايا أمتهم معايشة تمررهم بعناء التجربة، بل هم مأمورون بذلك، لتنمو ملكات أفكارهم، وتنضج خبرتهم فتكتمل قدرتهم على تخطي الضآلة إلى الجزالة، والضحالة إلى العمق الذي يؤهلهم

لوضع الحلول السليمة لمشكلاتهم بوحدة الكلمة وتعاضد القدرات ووضوح الرؤية، ليجتنبوا النتائج المحزنة التي هي حصاد الخبرة الخداج، والفكرة اللجاج، ككل حصاد لأناس ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا!

وكم من أمة ضربت في تيه الضلال بعيدا، ثم حاولت لمَّ شتات أمرها بفتات رأي بنيها، فحصدت مزيدا من الشتات، لأن مسيرتها لم تنهج لغايتها على طريق جادة.. فتفرقت بها السبل تفرق أهوائها فذهب ريحها، وأضحت نهبا لقطاع تلك السبل، ومطعنا للمارقين. فلا هدفا حققت، ولا سلامة أبقت. وما ذلك إلا لأنها بدأت في إصلاح شأنها بتغليف واقعها السيئ واتخاذه أساسا لإقامة صرح يضاهي صروح الأمم الأخرى، فخر الصرح على أهله فهلكوا أو كادوا. لأن بناته لم يبدءوا في إصلاحهم من اللب، كما فعلت رسالتهم، فأضاعوا الجهد والمال والزمن، وانزلقت أمتهم في مهاوي الردى ومواقع الخطر، لانتفاء أسباب المنعة والسلامة.

أما الأمة التي لا تستهويها أصوات الناعقين، مهما نغموا، ولا يغرر بها المشيرون إلى السراب، مهما كانت الأكباد حرى، بل كلها إصغاء إلى الله، واقتداء برسوله، لأنه ليس عندها أصدق من الله قيلا، ولا من النبي الرشيد دليلا، لا شك أنها أمة فالحة رابحة آمنت أن رسالتها التي جعلت من رعاة الشياه رعاة للأمم، هي خير ما تبر به بنيها وتنشئهم عليه. لتدخر للأيام رجالا بررة، عقيدتهم

الإيثار لا الأثرة، يستكثرون من الخير لها، ويوم الزحف لا يولون الدبر.

وهي أهل لهذا الجنى الكريم، لما بذلته من جهد مضن في سبيل صياغتهم الصياغة التي تتناسب وجلال ما بين أيديهم من قول كريم، متمثل في كتاب الله وسنة رسوله، وعلم عظيم، أنتجته العقول المبدعة، فنقلت به البشرية إلى درجات من التقدم المادي لم يسبق لها أن تبوأته.

وقد شاءت لأبنائها ذلك واختارته لهم، لعلمها أنهم روادها لمنابع الخير والمنعة والسؤدد، إن كانوا أهلا للريادة والقيادة، وإلا فإلى تيه يهلك فيه القائد والمقود.

وهل من رائد لمصير أمته ضمين إذا تنكب شرعة الله؟

ومن ذا الذي هو أحسن من الله شرعة، وأهدى منه منهاجا؟!

ولذا، فإن شباب هذه الأمة، مدعوون لترسم خطا نبيهم الكريم، باتخاذهم الرسالة خلقا، ومنهج عمل، وأسلوب علاقة، ليكون هواهم تبعا لما جاءهم من الحق المبين، فيصبحوا المثل الأعلى لمواطنيهم، والطليعة الرائدة للفهم العميق للرسالة، والتطبيق الصحيح لها.

وسيجدون عندها، أن الناس قد أدركوا أن الدين لا يقوم على محاكاة موروثة، وتقليد عشوائي، بل على عقيدة راسخة باليقين، تجتث محتوى القلوب من سيئ المضمرات، وتغرس بدلا منها القيم العظيمة، التي جاء بها هذا الدين الحنيف.

يومها، يكونون أهلا لإكبار الله لهم على ما سواهم، ويعودون كما كانوا، خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وأمرهم شورى بينهم. أيديهم بالخير مبسوطة، لكل ما خلق، وقلوبهم بالرحمة طافحة، لكل ذي كبد رطب، وأنفاسهم نسمة أمن وسلام، للراغبين في السلام، وعلى الظالمين فيح السموم.

وأولئك هم المفلحون.

وبالله التوفيق

الفهرس